حول
الإيدز

علاء الشموس

حلوى الإيدز

رواية

مكتبة ومنشورات بصرياثا

مكتبة ومنشورات بصريا‌ثا النشر والتوزيع

المؤلف: علاء الشموس
الكتاب: حلوى الإيدز
عدد الصفحات : 182
الطبعة: الأولى : 2022

جميع الحقوق محفوظة للناشر دار ومكتبة بصريا‌ثا للترجمة والنشر والتوزيع.
جمهورية العراق - البصرة
نقال:
964+ 771 099 9029
البريد الألكتروني:
Alihu.1996@gmail.com
إن مكتبة ومنشورات بصريا‌ثا غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه .

BASREATHA Bookstore & publishing house .
All rights reserved .

التصميم : ماهر عدنان
الإخراج الفني: آية نبيل

الرقم الدولي ردمك (ISBN)
978-9922-9829-0-8

اتَّكأ المحققُ ديفيد على كُرسِيه بظهره المتعب؛ جرّاءَ العملِ المكتبي الطويل إذ كان يُنهي أوراقاً كثيرةً تَخصُّ قَضيةً عملَ عليها طوال شهرٍ كاملٍ، رفعَ رأسه نحو الساعة المعلَّقة على الجدار الممتلئ بالأوراق، حتى إنّه لا يستطيع التنفسَ من كثرتها، قال بصوتٍ كلّه عنفوان على الرغمِ من كلِّ التعب:

«لعَلّي كبطلٍ أنالُ بعضاً من الراحة والاحتفال، فقد حللت قضيةً حَيَّرت الشرطةَ الفرنسيّة».

نهض ساحباً سترتَه ذات اللون البيجي وراح يرتديها مع قميصٍ أزرق وبنطاله الجينز، بالرغم من عمره الذي تجاوز الأربعين فهو لا يجد راحتَه إلا بهذا الملبس الشبابيّ.

أغلقَ باب غرفته التي أقلُّ ما نقول عنها إنَّها أشبه بيوم القيامة بكل زلازلها وبراكينِها؛ فكلُّ شيء فيها مبعثر، وفي كلِّ مرة يسأله المسؤول ما بال غرفتك بهذا الشكل؟ يجيبه بخبثٍ ساخر:

«العباقرة دائماً فوضويّون».

عند بابِ المخفر الباريسي في إحدى أحياء باريس المتوسطة، وهو حي (ماريه)، لحق به أحدُ عناصر الشرطة وهو يحمل ورقةً ويقول:

«سيد ديفيد وجدوا جثَّتين في قاطعنا، ابلغ سيارةَ النجدة».

أشار له بيدِه وهو يقول:

«ابتعد عني يا رجل، الساعة قاربت العاشرة والنصف هناك، مَن هو مسؤول الخفر، أنا هنا لأنهيَ أوراقاً خاصّة بقضية السفّاح».

توقّف الشُرطي على السلَّم العريض وهو يفكّر، بينما أكمل ديفيد مسيرَه لبضعةِ أمتار، في هذه اللحظات وصل زميلُه المحقق (بول) وهو على عجلة فحيَّاه مستعجلاً.

ردَّ ديفيد التحية عليه وهو يقولُ ساخراً:

«لن تكونَ مُحققاً ناجحاً يوماً إنْ لم تكن ملتزماً بمواعيد عملِك، ها أنت تترك عملَك كطفلٍ يهرب من المدرسةِ».

لَم يُعِر له زميلُه المحقق (بول)، وأسرع يدلف باب المخفر ويدخل، بينما جلس ديفيد في سيارتِه، وأشعل سيجارة، وقرر أنْ يدخنّها قبل قيادة السيارة؛ كي يستمتعَ بها، ويتلذذَ شعوره بمفعولِ نيكوتينها.

نزل زميلُه المحقق بول وهو يقول له بشماتة:

«تقول لي متى تتعلمُ أيّها المحقق الكبير؟ وجثتان في موعد عملك تتعفّن من أيام وأنت لا تعرف!»

فتَح باب سيارتِه بسرعَة بعد أن رمى الباقي من سيجارتِه دون أن يُنهيها، وأسرعَ يمد يده إليه ليقرأَ البرقيةَ والمعلوماتِ التي فيها، قال:

سوف أتحقق من المعلوماتِ والأسماء جيداً، سأوافيك لاحقاً بباقي التفاصيل، الآن عليّ الذهاب؛ تلقيت اتصالاً أعلمني أنَّ زوجتي قد عادت من السفر.

كان ديفيد قد وصل إلى منزله، دلف مطلقاً ابتسامةً لا تنمُّ عن التعب الذي وقع به، عندما وجد زوجته دكتورة روز قد عادت من السفر تستريح في صالةِ الجلوس، قال:

- حبيبتي عادت، كيفَ حالكِ؟ «وهو يحتضنها»
- بخير يا حبيبي فقط تعبٌ قليل.
- أنا خبير في المساج تعالي أُريح أعصابكِ.
- أدامك لي حبيبي.
- زادت وحشتي في غيابك، أخيراً عدتِ وأزلتِ عني وحشة الاشتياق.
- لن أغيبَ مرةً أُخرى عن ناظريك من الآن.
- الكل اشتاقَ لك حتى شارلوت قبلَ أسبوعٍ اتّصلتْ تطمئن عليكِ.
- اللعنة، كنتُ أتنقّل في بلجيكا، لم أسمع أخبارها مُنذ شهر.
- سننال توبيخاً عندما نراها، لن ينجيَنا شيء من لسانِها، قال ديفيد.
- ستلقي علينا محاضرةً طويلة عن الفارقِ بين العراقي وحبه للصديقِ وبين الفرنسي الذي يتقنُ عمله فقط ولا يجيد الصداقة، «قالت روز وهي تضحك في وجه زوجها ديفيد».
- سنزورها هي وزوجها آدم في الغد دون موعد حبيبي.
- مباغتة ومفاجأة لتلك المشاغبة، حسناً فكرة جيدة حبيبتي.

- لكن أتعلمين؟ أتساءل كيف اجتمع اثنان كهذين؟
- تقصد آدم وشارلوت؟ «بأعجوبة أكيد»، حياتهم مختلفة تماماً.
- تعرفينهم أكثر مني إذًا؟
- بصراحة ليس كثيراً، علماً أنَّ شارلوت أرسلت لي طرداً بريدي، حرص مندوب الشركة على استلامي إياه باليد.
- يا للشناعة، وأنا هنا منذ شهر ولا أعلم!
- أساساً وصلني قبل الآن، يبدو أنّه محض صدفة.
- أردفت: لا عليك، سنقوم بقراءته معاً حبيبي.

قفزت روز تجلب البريد الذي يحمل عنوان آدم وهي تترنَّح مع زوجها ديفيد عرض القنفة وهو يحتضنها، فتحت ما بداخله وإذا بكراستين متلاصقتين مكبوستين جيداً على شكل كتاب كبير غير مرقَّم يحمل نفس العنوان.

فتحت الكراسة..

الفصل الأول

2011/11/13

في صبيحة الثالث عشر من نوفمبر، استفقتُ على شعاع الشمس الدافئ الذي وضع نهايةً أخيرة لكابوسي المظلم، عندما قتلت ضوء النهار الصارخ في الخارج بأجواء باردة يتنازع بها العديد من العشاق في الرقص تحت أمطار تهطل كلما غابت الشمس، في حين يتبادلُ كل منهم الرسائل في تلك الظروف المبللة، يحملها ساعي البريد قديماً، أما الآن تذهب أسرع من الريح تحمل أشكال الأحاسيس والكثير من المواقف في هاتفٍ لعين يجعل حتى القُبل بلا قيمة ومعنى إذا كانت عن طريق رسائل صوتية، فيكون المجد إلى من يرميها واقعية مُتبادلة وجهاً لوجه، ويفضَّل أنْ تكون دافئة تجري كقهوة ساخنة في أجسادهم، وتبثُّ الأمان كملتقى العصافير فوق أعشاشها أعلى الأشجار، تصدر صوتها الذي يعزف في أعماق روحي شيئاً من الطمأنينة، كانت الساعة تشير إلى السابعة والنصف، أنزلتُ بيجامة النوم أسفل قدمي وقمت ببعض التمارين الرياضية السريعة، انتهيت بعد ارتداء زي الجامعة الرسمي، ثم ألقيتُ نظرة عبر

نافذة شرفة السطح، كنت قد لاحظتُ الشيخ لطيف، وهو رجل أسمر البشرة، نحيف ذو بطن منتفخة وذقنٌ عالي، عيون واسعة، في الخمسينات من عمره، يجلس في حديقة منزله، ليس كما هو عندما يرتدي عمامة الدين، يرتدي تيشيرت رياضياً وشورت جينز قصيراً! يوحي لمن لا يعرفه أنَّه لاعب كرة قدم، يمسك كتاباً يبدو من بعيد أنَّه كتاب علمي، مرسوم على غلافه شيء يخص الفلك، أمامه زوجته التي تتصفَّح الجرائد، تضعُ بعناية مكياجاً خفيفاً يُخفي بيوت التجاعيد التي على وجهها، كنتُ أراهما متناسقين وعائلة مثقفة، ولاسيَّما أنَّهم يقرأون الكتب ويتناولون الجرائد، يحملون الطاقة ويكسبون التوهج، بعد أنْ انتبهتُ لنفسي أنَّ التنصت على بيوت الآخرين هو انتهاك للخصوصية أغلقت النافذة، وترجَّلت أسفل السلَّم على يساري، إنَّه المطبخ حيث المفاجآت، دلفت أتناول وجبة سريعة من الطعام الذي أعدَّته أمي، انتهيت بعدها وخرجت نحو صالة الاستقبال أقبّلُ يدي أمي، ملقياً تحية الصباح عليها وأبي وأختي آيات، تركتهم بعد أن اعتذرت على عدم مشاركتهم الفطور وإنني سبقتهم بسبب جوعي، عدت أجلس بكل هدوء على درجة من درجات السلم، وبيدي فنجان قهوة ورواية كنتُ قد استعرتها من صديق الدراسة فارس، رحت أتذوق قهوتي، وأستمتع بالقراءة لبرهة من الوقت حتى نبهني هاتفي وهو يرن مما جعلني أقفز!

- مرحباً، آدم ألا تأتي، قال سنان بلهفة للخروج.
- قلت: أفضّل أنْ أرتاح قليلاً اليوم؛ لأنني يجب أنْ أُعيد ترتيب جدولي الجامعي.
- تعال لنذهب، صدقني هناك منظرٌ بديع، قال سنان مُلحّاً، وأردف قائلاً: كل هواة الكُتب موجودون ونخبة من المُثقفين أيضاً.

رأيت الأمر مدهشاً، وكلامه أعطاني جرعة للذهاب لن أندم عليها، لم أكن أعلم أنَّ هناك زفافاً من النساء المقبلات على الحُبّ، وشباباً يصطادون في الماء العكر وسنان منهم!

- أجبت: الموضوع يخص الكتب لهذا موافق.
- سأكون بانتظاركَ أمام بوابة الجامعة السّاعة الثامنة والنصف.. إلى الملتقى، قال سنان.

تهيأت وانطلقت نحو الجامعة، التقينا ثم دلف سنان يسبقني وأنا بعده حيث الأجواء رائعة لأتسلّل بين مقتنيات المكان، اعترضتني الكُتب واللوحات من بداية دخولي، والشخوص من فنانين ورسّامين وكُتَّاب رحنا نلقي التحية على صاحب المعرض، تركنا وذهب معتلياً المنصة يمسك مُكبّر الصوت، بنحنحة قصيرة جذب انتباه الحاضرين وقال بصوته العميق مبتسماً:

- أنا سعد طارق، دكتور في كلية الطب، وضيف شرف على جامعة البصرة لإخراج المعرض على أكمل وجه.

راح يقدم نفسه هذا الأربعيني وهو يبتسمُ بعمقٍ شديد، بروح الشباب، يبدو للجميع مقبولاً وهو يتحدثُ بأريحيَّة، ينظر الجميع إلى طول قامته، نحو جسده الصلب كأنَّه أحد لاعبي النوادي الشبابية للياقة، يرتدي نظارات للقراءة مع ذقن أسود برّاق، أكمل وهو يُأنِّق ربطة عنقه:

- سعيد بوجودي في هذا الحفل، سيداتي آنساتي وسادتي، استمتعوا.

أخذتُ أرى الحضور، وتاقت نفسي لتدخين سيجارة إلا أنَّ الوقت غير مناسب بتاتاً، وكان عليَّ التركيز أكثر في هذا المنظر الثقيل بذهنٍ خال، حيثما استدرت مع خطوة إلى الخلف اصطدمتُ بفتاةٍ تشبه مُمثلات هوليوود ذات شعر طويل ناعم، وعيون واسعة مضيئة كالقمر، وجه دائري برّاق يحاول الكل أن يقع في خطواتها ويسرق نظراتها، لكنَّها كالسيف يقطع كل شيء أمامه، حادة جداً لا تعير اهتماماً لأحد وكأنَّ الحضور فقط من النساء ولا يوجد هذا الكم من الشباب المتألقين في قيافتهم، استغرق كلٌّ منهم الكثير من الوقت لتصفيف شعره وترتيب ربطة عنقه، في حين أنَّها ترسل جواباً للجميع بحركاتها، وترسل تلميحاً حادَّ اللهجة يقول: لا أهتمُّ بثمن العطر الذي تضعونه، كانت بكلِّ ثقة تحرِّك الزمان والمكان وتجذب الكثير، أما أنا أقف كأحمقٍ يحاول أنْ يخلّص

نفسه من هذه النظرات الفاضحة والسخيفة.

- أعتذر سيدتي، قلت مضطرباً

- لا عليك إنَّه خطئي، قالت تخطفني سريعاً تمرّ مرور الكرام، ترمقني بنظرة سامة ثم تبتسم.

آه يا قلبي، من تلك الجميلة؟ حاولتُ اللحاق بها ومن مسافة قصيرة كنت أقترب منها كالمعجبين، بينما هي تتفاخر بعلو صوت كعبها الذي يحدث خللاً في نبضات قلبي حتى علت على صوته، كان يعصر أذني كجرس مدرسة أو كنيسة، يجعلني أقترب حانقاً، أردد بين نفسي، أشيحوا أعينكم عنها؛ فهذا لها وقود للتكبر والغرور، واتركوا لي فرصة التنفس؛ فهي تقترب نحوي أكثر كنداءِ عاصفة الهواء، حينها شعرت أنَّ قدمي توقَّفَ بها جريان الدم، وتصلَّبت شراييني، لساني يغدرني لا يتحرك، كنت أنظر إلى عينيها الداكنتين، وهذا الفم المنتفخ بالدم، كانت تتدفَّق شباباً كوردة في موسم الربيع ممتلكة المكان، هذه الفتاة التي تبدو من عائلة برجوازيَّة تتقن الغواية واصطيادي في شبكتها، بينما أُقارب خطواتي شعرت أنَّها تخدع الجميع بجمالها وكان يجدر بي أن أصمت، لم أعد أتذكَّر ماذا جرى بعد ذلك غير أنَّ سنان قد اختفى كالعادة محاولاً أن يلتقي بشابة أخرى ليخدعها، ويتركني كطفل يحتاج إلى النصيحة الآن في هذا المأزق، كنت أحتاج إلى من يشجعني محاولاً تجميع شتاتي أو من يتمكن من عرقلتي نحوها متعثراً بها وأعتذر مجدداً، بينما اقتربتُ

نحوها قتلت فكرة أنْ يكون هذا هو الحب من النظرة الأولى، ربَّاه ساعدني الآن؛ فلساني جبان وقدمي اليسرى أيضاً، وهذا الوجه المُتعرق في هذه الأجواء الباردة عتاد منتهي الصلاحيَّة، وهذه الملابس تصرخ فيّ: من أفسد ما رتبتهُ كاوية الملابس؟ كنت أفكر أن أحمل وردة بيدي كما يفعل الممثلون في أفلام هوليوود، لكنني قلت في سري: أيُّ أحمقٍ أنا؟ هي ليست حبيبتي لأقدم لها وردة حمراء، كان الوقت يمضي سريعاً، ويدور في عقلي أن هناك من سيقطفها كزهرة ويسرقها إن تأخرت أكثر، هممتُ بالتقدم نحوها، كان التلعثم واضحاً كمن يبلعُ الحروف لحظة الخطاب! وقفت أمام وجهها ساكناً بينما هي بدت مُتفاجئة، عمَّ الصمت للحظاتٍ، ظننتُ أنَّها ستوبخني على موقفي الجنوني هذا، كنتُ أدفعُ بلساني بالله عليك تحدث، وأخيراً خرج من فمي صوت جريء دون وعي مني:

- هل يمكنني مساعدتكِ؟
- أهلا بك، نعم أبحث عن تلك الجنيةِ مينا، قالت بكل عذوبة تهز رأسها.

شعرتُ بالنشوةِ واستلمتُ زمام المبادرة، ثم سحبت نفساً عميقاً وقلت:

- من تكون مينا؟
- أُختي، تأخرت كثيراً تلك الشقية، أردفتْ تسألني: هل

أنت من منظمي الحفل؟

- أجبت: شخصٌ مثل حالكِ أضاعَ شخصاً ما؟
- من هذا الأخير؟ قالت مبتسمة.
- سنان صديقي المشاغب، تركني مرةً أخرى من أجلِ فتاة ما.

همتّ بالقول:

- ربما يبحثون عن ضالتهم هنا.
- أجبت: ربما فالمكان جميل بالمقتنيات!

ألقيت عليها التحية وقلت:

- أنا آدم، ٢٦ سنة، أدرس في كلية الآداب قسم علم نفس، أعيش مع أبي رجل متقاعد، أما أمي ربة بيت، كاتب مغمور.
- ماذا عنكِ؟
- اسمي ماري، دكتورة مغمورة أيضاً قالت ضاحكة، أردفت ٢٢سنة، أدرس المرحلة الرابعة في كلية الطب، أقرأ الكُتب والروايات أَحياناً لكن أشكو من عدم معرفة الاختيار الصائب، كانت أختي المجنونة من قدمت لي الدعوة على الرغم من انعزالي بدراستي.
- أنصحُكِ بالمجانين كما نحن مثلاً.

راحت ضاحكة أخيراً، اشتهيت افتراسها حينما ظهرت تلك الغمازة في وجنتيها التي تشبه فراولة تزين قطع

الكيـك اللذيـذة، قاطعتنـي قائلـة:

- ٢٦ سنة! يبدو أنَّك متأخرٌ بالدراسة؟
- تركـت دراسـتي فتـرة طويلـة بسـبب وفـاة أخـي الأكبـر حينها؛ لأني كنت متأثراً به.
- آسفة لإيقاظ جرحك.
- لا عليك، الأهم أنَّني أكملت دراستي الآن.

رحـت أُطلـق بعـض النـكات التـي جعلتهـا تقهقـه لبعـض الوقـت، لكنَّنـي انتبهـت لموقفـي الغبـي فكانـت محاولتـي حينهـا التقليـل مـن النـكاتِ السـيئة كـي لا تظـن أنَّنـي أحمـق يطلـقُ التفاهـة، فقاطعتنـي قائلـة:

- تعال لنجدَ هؤلاء الملاعين.

رحنـا نبحـث عـن سـنان ومينـا، بعـد لحظـات وجدناهمـا بيـن الحشـد، كان كل منهمـا يلهـو مـع أصدقائـه، أخذناهمـا معنـا ورحنـا نسـتمع لكلمـات الترحيـب مـن صاحـبِ المعـرض دكتـور سـعد، عِندمـا ألقـى كلمتـه بحـرارة ترحيبـاً بالجميـع وهـو يقـدِّمُ الشـكر ويسـتلمُ التهانـي، حتـى راح الـكل يثنـي علـى هـذا الشـخص فهـو عنصـر مهـم فـي إدارة جامعـة البصـرة ودكتـور لامـع فـي كليـة الطـب، واختيـار مناسـب لهـذا الكرنفـال؛ لأنَّـه يعـد مـن أهـم المسـؤولين عـن التنظيمـاتِ الداخليـة والخارجيـة والمناسـبات التـي تخـص المعـارض.

تبادلنـا نحـن الأربعـة التحايـا وتعرفنـا علـى بعضنـا، فيمـا اسـتدارت نحـوي مـاري ضاحكـة مـن تفاهـات سـنان الـذي

يطلق النكات المزعجة، وقد غطى شعرها المسبل عينيها، كنّا قد جلسنا قليلاً مع بعضنا البعض، وجدت نفسي مستلقياً بجوارها على كراسي الاستراحة في هذا الطقس الرائع، بعد أن تمكنت من ملامسة أطراف أصابعها، قمت بالتمثيل بأني أضحكُ وكأنني أمزح، فلم تمانع، وبقينا على هذا الحال إلى أن سألتها إنْ كانت ترغب بحضور فلم سينمائي يوماً ما على وقت فراغنا، فضحكت وقالت إنَّهاً راغبةٌ بمشاهدة فلم رومانسي يُدعى

(مشية للذكرى) (A Walk to Remember)

هممت بالقول:

- فكرة رائعة، سيقام مهرجان سينمائي مُتنقل لعرض الأفلام قريباً، سنحضر ونطلب مشاهدته معاً، اتفقنا وما زالت تنظر في عين محدثِها.
- شكرًا لوقتِكَ أخ آدم، لقد استمتعت معكم.

لا أعلم لماذا شعرت بالضجر وكأنَّ هناك من أعطاني ضربةً قاضية على وجهي، كلمة (أخ) أزعجتني بعد أن اعتلى قلبي السحاب، ها هي تهوي بي إلى الأرض، كلمة بألف نهاية تعيسة، قذفتْها في وجهي، كانتْ تخرجُ بمعنى ثقيل ترجمتُها على أنَّها أكرهك، على كل حال تناسيت وخلقت عذراً لها بأنَّها كانت تقصد أحبك يا هذا.

أخبرتني بعد ذلك أنَّها كرديَّة الأصل من مدينة السليمانية، وانتقلت للبصرة بسبب عمل والدها الذي يعمل مدير قسم في شركة نفط البصرة العراقية وتقيم

مع والدها ووالدتها التي هي من أُصول تركمانيَّة، وبأنَّها تقسِّم وقتها حصتين؛ بين دراستِها ومساعدةِ أمها المريضة، وأنَّ لديها أختاً واحدة هي مينا

أثناء ما تحدثني عن نفسِها جاءت تصرخ مينا بالوقت الذي كنت أفكر بتأخيرهم أكثر دقائق ممكنة:

- لقد وجدت رواية نجيب محفوظ.
- رواية واحدة جعلتكِ تفزعين بالصراخ؟
- رواية (أولاد حارتنا) إنَّها واحدة من أجمل روايات الأديب نجيب محفوظ، قالت مينا.
- طننتُ أنَّكِ ربحتِ اليانصيب، قلت لمينا ضاحكاً، مما جعلها تحمرُّ خجلاً وتحتمي خلف أختها.

انتهى الوقت سريعاً وما كان لي أن أعود خالياً، استطعت إقناعها على أخذ رقمي الخاص قبل توادعنا بعد أنْ توعدتُ لها بأنَّني سوف أنصحها ببعض الكتب، وهنا أصبح وزني يزنُ ريشة طاووس من شدة الفرح.

- نلتقي مجدداً، فرصة سعيدة آدم.
- نلتقي مجدداً إلى اللقاء.

الساعة السادسة صباحاً، استيقظت مفزوعاً كمن لدغته بعوضة في جفنه، رأس يُطنطن، وعينان مفتوحتان أكثر من اللازم، وسرير مزعج، كان صباح اليوم طويلاً مملاً، لطالما انتظرت به اتِّصالاً ما أو رسالة متأخرة

من ماري لكن دون جدوى، لا خبرٌ يُذكر، ولا طيفٌ متعثرٌ حتى في مساحة كوابيسي بعد أنّ أصابني ملٌ في غرفتي المظلمة، على الرغم من أنَّ أرجاء المنزل كانت مريحة بوجود عائلتي، ها هنا أمي وأبي يتكئُ كلٌّ منهما على بعض بعد أن انتهيا من وجبة الإفطار إلى جانب أختي آيات الصغيرة، يبدو أنني اقتنعت أخيراً بأنّ أُمارس شيئاً ما لقتل الوقت دون إعارة أيّ اهتمام لواجباتي الدراسية، أخذت جريدة قديمة كان يقرأ بها أبي سابقاً وقد أصبحت الآن إحدى أدوات التنظيف لزجاج النوافذ لدى أمي، رحت أقتص رؤوس الكلمات بالمقص ثم جمعت حروف الجريدة وكونت منها أسماءنا أنا وماري، ثم ألصقتها في كراس يومياتي القديم، ذلك الكراس الذي أجمع به كل ما هو جميل وقبيح، انتهيت بعد أن غسلت يدي، وخرجت إلى الشرفة كالعادة أرى روتين الشيخ لطيف وزوجته، وكم يبدوان عاشقين في مقتبل العمر، ألقيت نظرة ثاقبة على شارعنا الكبير من أعلى غرفتي، كان الجو جميلاً، رحت أرى العجوز جارتي تتسابق مع حفيدتِها لإيصالها إلى المدرسة، تخرج مع شخص قصير ذي بطن منتفخة، وقد سبق لي أنّ صادفته في مكان ما عصرت جبين رأسي.. نعم تذكرت أخيراً أنَّه صالح الذي يجلسُ في المقهى الشعبي، رجلٌ في الستينيات من عمره، ذو البطن المنتفخة، وشارب كثيف ولحية بيضاء ناصعة، جعلني أتساءل ماذا يفعل هُنا؟ أسدلت ستارة الشرفة ونزلت

حاملاً بيدي فنجان قهوتي، بينما أحتسي القليل ارتديت ملابسي للذهاب إلى الجامعة، كان باص الجامعة يقف في نهاية الشارع مما يجعلني أذهب سيراً على الأقدام، خرجت من باب المنزل، وعند عبوري نهاية شارع منزلي مرَّ شبان الحي شعورهم مدهونة تلمع، ربطات أعناقِهم ملونة وأحذيتهم جديدة كمرآة يرى كل منهم تسريحة شعره من خلالها، لا بدَّ أنَّهم ذاهبون إلى مبتغاهم، كل منهم تتسابق خطاه للحاق بالباص وهم يقهقهون ويداعب بعضهم الآخر.

بعدها بقليل وصل باص الجامعة وذهبت كالعادة لروتين الدراسة.

في الساعة الرابعة في طريق العودة إلى البيت جلست في نهاية الباص متعباً دون رغبة في تأدية أمر ما أو مشوار مقترح، كانت الشمس أذنت بالمغيب، وأصبحتْ الطرقات تمتلئُ بالناس شيئاً فشيئاً، لمحت من بينهم هشام (أبو تراب)، وهو مسؤول كبير لمنظَّمة تُدعى (مجلس النظام) في الأربعينياتِ من عمره، يرتدي بدلة سوداء، ذو وجهٍ طويل وحنكٍ بارز، و ذقنٍ أسود برّاق يبدو أنَّه يصبغه عند الحِلاقة، ينطلقُ مع مجموعة من الأشخاص ذوي أجساد خشنة، ها هم يمشون خلفه، اتضح أنَّهم (حماية شخصية) يطوفون معه المكان، منصاعون لأوامره، كان يُطلق عليهم (المجاهدون) في المدينة، وفي الجانب الآخر أرى الكثير من المشاهدين يخرجون من

مهرجان سينمائي متنقل يعرض أفلاماً طويلة في أماكن عامة أغلبهم من الشباب، يخرجون بعيون حمراء، أدركتُ أنَّهم خارجون من نهاية فيلم حزين، ضخَّ المشاعر في أحاسيسهم، ومدَّهم بالبكاء وجعل النساء تستند رؤوسُهن إلى أكتاف الأحبة.

عدت إلى البيت مُتعباً أشعر ببعض الإرهاق، دخلت غرفتي واستلقيت على سريري لأرتاح قليلاً، لعلي أجدُ بعد هذه الراحة اتصالاً من ماري ينتشل كل التعب والأرق المتمكن مني، بعد نصف ساعة هممت بالنزول إلى الشارع أتمشى، نزلت السلم بخطوات ثقيلة حتى وجدت نفسي منتصف الطريق، كانت مصابيح الشارع مضيئةً بحلول المساء، فبدت لي النجوم صافية ورحت أعدُّ عدد الأرصفة، روادها، الضحكات من المارة، بكاء الأطفال المستسلمين لأذرع الوالدين التي تجرّهم، ظللت في ضياع إلى أنْ خيَّم الليل وقد تأخرت في وحدتي أطوف المكان أكثر من مرة، استمر الحال هكذا إلى أن أقفر الشارع رويداً رويداً وبدأ يخلو من المارة، كنت أرى أول الكلاب السائبة تتجمع وقد ظهر الكثير منها بشكل حلقة، بدا لي أنَّه وقتهم المُعتاد للقاء، فتركت لهم المكان وانصرفت.

بدأت حينها أشعر بالجوع مما جعلني أعود إلى البيت، وجدت عائلتي في سبات تحت سُكون الظّلام، كلٌّ منهم يلتحف غطاء النوم، رحت أتمشى على أطراف أصابعي كي لا أوقظهم، دلفت إلى غرفتي بسرعة مرتدياً ملابس

النوم، حينها سقطت عيني على يميني، إذ وجدت والدتي تضع وجبتي الخاصة للعشاء أعلى طاولتي الجرداء، كانت سندويشة لذيذة فقمت بازدرائها، ثم تاقت روحي لتدخين سيجارةٍ أمام النافذة، دسست واحدة في فمي وأثناء ما أزفر دخانها خارجاً مستسلماً إلى التفكير العميق وردني اتصال!

يا إلهي رقم ماري يتصل بي، هممت بالإجابة مسرعاً:

- مرحباً

- أعتذر على التأخير، أنا ماري

لم تتأخر حينها على التبرير حول غيابها، راحت تخبرني معتذرةً عن أنَّها كانت في فوضى دراستِها وعلاج والدتها وقد كانت مشغولةً قليلاً، بينما أنا أُردد في قلبي شكراً يا إلهي كنت على يقين بأنَّها ستتصل، ولم أشأ أنْ أُثقل عليها بالأسئلة التي تدور في ذهني لكنّي أخبرتها حينها بأنّني كنت مشغولاً أيضاً، وقد كذبت هذهِ المرة، حقيقة الأمر أنَّني كنت بانتظارها طوال الوقت تحدثنا طوال الليل بعد أنْ أخبرتها عن روتيني اليومي، فكانت منبهرةً، وكان هذا يمنحني الرغبة في إثارتها، حينها هي الأخرى انطلقت تخبرني عن تفاصيل حياتها وقد تطرقنا للحديث عن الكُتب والحب، وأنَّها تعلم القليل عنه وهذا ما تعلمته هي من مفاهيم الحياة ودروسها، وبعض مما قرأت من الكُتب وأنَّها قارئة بسيطة، متحدثة بِحريّة وطلاقة تذهلني!

قاطعتها قائلاً:

- أليستْ مهنة الطب حساسة؟

انفجرت ضاحكةً تقول:

- مهنة لأصحاب القلوبِ القوية.
- أجبت: لا أتخيَّل نفسي طبيعياً أمام دماء المرضى.
- مسألة طبيعية، تصبح الأمور عاديَّة بعد الأيام الأولى التي تكمن بها الصعوبة مع الطلبة ومن ثم نعتاد الأمر.

هممت بالقول:

- هذا فظيع، يشعرني بالغثيان عندما تتلطخ يدي بالدماء.
- اشكر ربكَ أنك لست طبيباً، لكنت الآن مغمى عليك قالت ضاحكة.

كان هناك متسع من الوقت لفضولها نحوي بعد أن سألتني عن الكتب التي أُحبذها، وكم هي مفيدة للكُتَّاب عندما يبدعون بالغزل أمام حبيباتهم، وكان عليّ إخبارها بأنَّني أحتفظ بالكتب، ولا أستطيع التضحية بأيّ منها حتى وإن لم يعجبني بعضها؛ لأنني أستفيد حتى من الأخطاء التي ذُكرت فيها، ولم أتطرَّق إلى الغزل الذي كانت تودُّ سماعه في كتاباتي البسيطة، لكنِّي تطرّقت لثرثرة صديقي فارس الذي لم يكفّ في قاعة المحاضرات عن سبب دهشته وانبهاره حول مسرحيَّة الكاتب الأيرلندي صامويل بيكيت الذي شغل العالم بهذا العمل المسرحي

المجنون الذي اشتهر بعنوان (في انتظار جودو)، ولم أكن أعرف السبب الذي يجعل فارس يترك كل هذا الأعمال الأدبية ويثقل رأسي بالحديث عن عمل مسرحي وجودي، لربما كان يبدو عبثي غير واضح المظهر بسبب خوفه من المجتمع والقيادات الدينية، لأنَّه طالما كان غير مقتنع بالسياسيين ورجال الدين.

- حياتكَ رائعة مع الكتب.
- حياتي أجملُ بمعرفتكِ.
- لا تخجلني أكثر، ها قد بدأت بالغزل، بعذوبة أردفتْ إذاً ما الكتب التي وعدتني بها؟ قالت السؤال الذي نجح في أنْ يحرق كلمات الغزل العنيفة ويخمدها.
- قلت كثيرة أغلبها لكتَّاب فرنسيين منهم (فرانسواز ساغان، البير كامي، غيوم ميسو ...الخ)

صمتت في حيرة من أمرها بعد أن سمعت قائمة طويلة العناوين لكُتَّاب لم تسمع بهم من قبل، وراحت تدوِّن في ورقةٍ ما أعجبها من عناوين ودّت لو امتلكت مجموعة منها.

تشكَّرتني بعد ذلك راحت قائلة: بأنَّ الوقت قد تأخّر واختصاصها معقَّد يحتاج الكثير من التركيز، وعليها الخلود إلى النوم.

أنهينا الاتصال وانصرف كلانا إلى وسادته.

كان صباح اليوم التالي صعباً وشاقاً، وذلك بسبب أرق السهر والتفكير في ماري، كنت أُحاول النهوض من

سريري رغماً عني، بعد أنّ داعب عيني خيطٌ من ضوء النهارِ ينفذ من مصراعي الباب يقتل ظلام الغرفة، لم أكن أرغب بالنهوض بسبب جسدي المنهك، ولا أودُّ البقاء في السرير، كنت أتساءل ما إذا كانت ماري نامت جيداً، استطعتُ النهوض أخيراً، وجدت نفسي جالساً أمام مرآة الحمام، أُعاني من الدوار والغثيان، مستنداً إليها، عينان منتفختان، فم متشقّق الشفاه، وهذا الوجه الذاوي الغريب هو وجهي! بعد ذلك خرجت وفتحتُ شرفتي لم أرَ لطيفاً وزوجته هذه المرة، ربما هما في الخارج للتسوّق بعد ليالي من الحب وإثبات الذات والنجاح بمثل هذه العلاقة الوطيدة.

- هل نمت جيدًا؟ سألتني أمي.
- فأجبت: لقد سهرت قليلاً في الخارج.

بلغت الساعة ٧:٤٥ ملأت فنجان القهوة، احتسيت القليل ثم وضعته، ورفعت نفسي نحو صندوق الملابس، ارتديت ثيابي بسرعة وخرجت للوصول قبل أن يقلع الباص.

نزلت سلَّم بنياتنا والتقيت بجارتنا العجوز، وحين قلت: صباح الخير لم ترد، راحت تردد: تبًا لها، أين ذهبت؟ وكأنَّها لم تسمعني مضت وهي تمسك طعاماً يبدو طعام هرر، تبحث في أروقة المكان.

- هل يمكنني مساعدتكِ جدتي، قلتُ بصوت مرتفع علَّها تسمعني.

- أتصور أنَّها هنا، قالت العجوز بصوت دفين (هرّتي، هرّتي).

ثم مضت تبحث، تركتها ودلفت خطوات مستعجلة قبل أنْ أتأخر عن باص الجامعة في هذا الوقت أنهيت شارعنا، رأيت عندها (صالح) يبحث في زوايا الشارع، وبين حاويات القمامة مما جعلني أفكّر كثيراً وأسأل نفسي: ماذا يفعل آخر مرة عند منزل تلك العجوز؟ ولماذا هو غير محبوبٍ أبداً من قبل كل الجيران؟ كان دائماً حينما يسأله أحدهم عن مهنته يقول إنَّه يعمل مدير مكتب لرحلات الطيران لدى شركة أهلية، وعندما رأى أنَّني مهتم بما يبحث أدار وجهه نحوي وقال:

- هل رأيت قطة بيضاء قارعة اللون منقَّطة قليلاً بالأسود؟
- للأسف لم أصادفها، لا أظن أنَّها ابتعدت كثيراً، ستعود لا تقلق، بعد ذلك حملت حقيبتي وذهبت لاحقاً بالباص.

عدت كالعادة من الجامعة، كان يوماً طويلاً، وقد بانت عليِّ علامات النعاس، وكدت أنام في المحاضرة الأخيرة لولا أنَّ صديقي علي لكزني مرتين لينبهني أنَّ الأستاذ انتبه لي، أنهيت يومي وعدت إلى البيت لأحصل على جرعة من النوم وهذا ما كنت أتمناه الآن.

بعد أن استيقظت من النوم وجدت أنَّ الساعة قاربت الخامسة، وراح المساء يقترب دون أي خبر يُذكر عن ماري،

كنت أفتقدها كثيراً، وألعن وجع الانتظار في العلاقات وأهدد بيني بين نفسي أنَّني سأتصل بها إنْ لم تفعل هي الآن، تباً للانتظار، فعلاً أكثر ما يهدم العلاقات فكرة من يسأل أولاً، رحت أنزل من عند السلّم خارج المنزل أتنفّس بعض الهواء الذي قد يعيد لي التوازن، واصلت المسير وحيداً أطلق العنان لنفسي لأخلق أعذاراً ربَّما كانت ستُبرر بها ماري سبب غيابها، كنت شارداً سارحاً يطوف معي المكان حول نفسه، حيث نحو اللاشيء، كان الهواء ثقيلاً، وفوقي كأنْ لا سماء بل صخرة يدفعها حيوان متوحش فوق رأسي، وحين يصل يفتح فكّيه ويتنفس من وجهي بصعوبة وهو يبرز ملامحه القبيحة، كنت لا أعرف طريق عودتي حتى تعثَّرت وتضرر خنصر يدي، رحت أواسي الألم الذي تلقاه وأُدلكه وأتأسف من أجله قائلاً: آسف لأجلك، كُنتَ مرشدي يا صغيري، تركت خنصر يدي وانتبهت حينها للرجل الذي صادفته في طريقي، كان صالح يمر هذه المرة مبتسماً من أمامي، عاد نحوي كأنَّه تذكر شيئاً ما، ثم أخذني في الأحضان بحرارة كأنَّه طفلٌ يحتضن أباه، وجدته محبوباً، ولا أعلم سرَّ كُره الناس له!

- لقد وجدنا قطة والدتي قبل قليل، قال مسروراً.

كنت في حالة مريحة لأنَّهم وجدوا قطة العجوزِ التي اتضح أنَّها والدته.

- أخبرتكَ أنَّها ستعود، قلت متوهجاً.

كان قد دعاني لتناول كوب شاي ساخن في شقته،

رفضت في بادئ الأمر لكنَّه كان مصرّاً فوافقت.

كانت شقته تقع في الحي المجاور لحيِّنا، صعدنا السلم معاً، يبدو أنَّه كان مرتاحاً لأنَّه يعيش بمفرده في غرفة كبيرة يقع المطبخ داخلها، وتعلَّق على الجدار صور نساء عاريات، كانت تبدو لوحات غالية الثمن، وأثاث قديم، من تلفاز من الزمن القديم بلا صوت أو صورة، البياض يغطّي كل شيء في الشاشة، على اليمين رفٌّ كبير يحمل أجهزة راديو وبعض أشرطة التسجيل الصوتيّ لمطربين من الجيل القديم وأقراص موسيقية أغلبها أغاني المطرب مايكل جاكسون، والبقية مختارات من الأفلام التي لم أشاهد معظمها، وكم كان يبدو الأثاث وهذه المقتنيات غريبة لشخص آخر قد يجدها خزعبلات مجنون يستجمع القمامة في منزله ونحن في القرن الحادي والعشرين! لكني لطالما كان لديَّ هوس باحتواء هذه الأشياء القديمة في منزلي، وإحياء تراث وفن قد اندثرا سمعت بهما ولم أواكبهما للأسف، بينما كنت مندهشاً وأتحرَّى المكان كان الأخير يطهو طعام العشاء، ولم تمرَّ إلا دقائق معدودة حتى عاد يرتّب الأقداح والصّحون على المائدة، بعد ذلك وضع كوباً واحداً من الشاي! مما أثار استغرابي وأسرع بإخراج زجاجةٍ من النبيذ الفاخِر، ثمّ أخذ يقرب مقعده قبالتي، بدأنا بتناول الطعام، سألني فيما إذا كنت أرغب باستبدال كوب الشاي بقدح من النبيذ؟ فأجبته بأنَّني لا أحتسي النبيذ أبداً، وبدا لي أنَّه أسرف في الشرب وهو

يعرفني على نفسه كان متردداً بعض الشيء وهو يحرِّك جسده مضطرباً فقال:

- هل لي أنْ أثق بكَ كصديق؟
- يشرفني أن أكون صديقاً لك، أجبته بثقة.

صمت قليلاً ثم رفع رأسه ينظر لي بإمعان وقال:

- لي ثلاث أخوات من والدتي التي تراني ولداً مخزياً وعاراً كوني ..... ثم ساد الصمت.
- كونك ماذا يا صالح! أكمل صديقي.

قال صالح:

في حقيقة الأمر عندما مارست هذه المهنة كنت أشعر بنوع من تأنيب الضمير نتاج تربيتي ونزعتي الدينيَّة التي انغرست بداخلي من رواسب الطفولة المهمشة لكنِّي رحت أتسأل ما هو الفرق بين الزواج والدعارة؟

واستنتجت أنَّ الزواج مؤسسة اجتماعية بين فردين ذكر وأنثى تحت عقد شرعي وقانوني، يتمُّ الاتفاق بينهما على مبلغ معين بين الطرفين ولا يستطيع أحدٌ التكهن بفترة الزواج فيما قد تطول أو تقصر، بعدها إما تنتهي أو تكون دائمة.

والدعارة أيضاً يتم بها الاتفاق بين الطرفين تحت مبلغ معين أيضاً، لكنَّ الفرق يكمن في مدةِ العلاقة، ومما يميّز الدعارة من الزواج أنَّ المرأة تستطيع التعرّف على عدّة رجال في المجتمع من كل الطبقات والوظائف واللون من

دون الشعور بالملل، وليست هناك قيود بين الرجل والمرأة فكلاهما يستطيع أن يمارس حياته الطبيعية لذلك رأيت أنَّ الدعارة لا فرق بينها وبين الزواج، هذه هي نظرتي إلى مهنتي.

- بصراحة، مهنة منبوذة، قلت.
- إنَّ مهنتي في حقيقة الأمر لا تختلف عن مهنة المأذون الذي يزوّج ويطلِّق الناس، قال بثقة.

ابتسمت بعد تأمل وقلت:

كلامُكَ غريب في حقيقة الأمر، لكن الزواج ليس جنساً فقط، التفاهم وحسن العشرة والحب والتسامح كل هذه الأمور مطلوبة.

- أتَّفق وفي الحالتين تعتمد هذه الصفات على الشخوص وتعاملهم.
- مفهومك مرتبط حسب المادّة، إذا تلاشت المادة اختفى عالمك الوهمي، قلت.

أفرغ صالح الكأس في جوفه وقال ضاحكاً:

- لا يهم من هو الصحيح ومن الخطأ في هذا العالم المجنون.

ثم تناولنا أطراف الحديث تحتَ الهدوء والسلام، عمَّ الصمت قليلاً ثم رفع رأسه نحوي وشرب كأسه الأخير دفعة واحدة.

- أنت صديق حقيقي، قال محرِّكاً رأسه للأمام، ثم

صافحني برائحة فم كريهة.

- نعم، قلت له: إنَّني سعيد بمعرفتِك.

رحنا ندخِّن أكثر وكان الهدوء مخيّماً في الخارج، لا يصدر شيء غير نباح الكلاب، دلف نحوي وأشار بيده نحو جهةٍ ما بعد أنْ لكزني وقال:

- الشيخ لطيف ما رأيك به؟

- يبدو جيداً، لا شيء آخر.

- إنَّه لعين ويدَّعي ذلك، قال بسخرية ثم أردف: علاقته بالدِّين مثيرة للاشمئزاز أليس كذلك؟

فأجبته بالنفي، وهو يهزأ بكلامي ويغمغم وكأنَّه يعلم شيئاً يخفيه.

- علاقته بزوجته رائعة، قلت

- لا تعجل بالحكم فالمظاهر خدّاعة.

كنت سأصدِّق كلام الناس عنه بأنَّه لئيم، وأيّ شخص آخر كان سيقرر ذلك عند سماعه هذه الادّعاءات، فلم أعجب بكلامه حول شيخ لطيف؛ لأنَّني أعرف هذا الرجل جيداً ولا صحّة لما قال، على كلِّ حال هو مخمور الآن، وقد أزعجني كلامه كثيراً بعد أن ألحَّ يطلقُ الشبهات والشتائم على شخص يبدو معتدلاً مثلما أعرف.

فقلت في نفسي: إنَّ الوقت تأخر، فقمت بتوديعه وخرجت من عنده وأغلقت الباب بنفسي وخرجت مسرعاً إلى عائلتي.

الفصل الثاني

ها قد مرَّت ثلاثة أيام وأكثر، من دون أن يلتفت أحدُنا للآخر، ودون أن أتخلّص من وسواسي عن ماري، لم أكن أبحث عن شيءٍ غير لقاء جديد يجمعني بها، كان الطقس بارداً فهذه أيام نوفمبر الباردة، في عطلة الأسبوع المُتعب الذي جعلني أتنازل وأرسل لها رسالة متأخرة جداً، كنت قد أرسلتها البارحة ولم يكن هذا كافياً؛ هذا ما دفعني للاتصال بها وكانت قد أخبرتني أنَّها كالعادة مشغولةٌ وتعتذر، فدعوتها إلى لقاءٍ على كورنيش البصرة لتغيير الأجواء، ترددت بعض الشيء واستغربت، وجدتها حائرة بين القبول والرفض، تتساءل فيما بينها، (كيف ألتقي برجلٍ في هذا الزمن المُخيف، في مجتمع تكاد تكون بهِ الثقةً غير متاحة)، توقعت أنَّها ستخذلني بالاعتذار لكنَّها لم ترفض! طالما أنَّ الروتين والإحباط أخذ منّا ما أخذ، فكانت تستطيعُ الحضور، اتفقنا أن نكون على الكورنيش السَّاعة العاشرة (١٠:٠٠)، أغلقت الهاتف بسرعة وقفزتُ نحو خزانة الملابس متوهجاً بدلة السموكينغ، كنت أشعر أنَّني في الحالة التي أكون بها لمرات قليلة بأنني محظوظ، أُردد بين نفسي (ها هي توافق يا إلهي)! واقفاً أمام المرآة وأبتسم لوجهي، في حين أنظر لسَّاعتي الحمقاءِ وأشعر

أنَّ الوقتَ رجلٌ معاق يسير ببطءٍ مخاطباً إياها بلهجة تَوسلية: زيدي سرعة عقاربكِ أرجوكِ، بعدَها تركت أناقتي أمام المرآة، واستوقفَني اختيار عطر مناسب فلا يمكن الذهاب بعطر بسيط غير مقبول يعرّضني للانتقادِ بأنّني ذو ذوق واختيار رخيص، فتذكَّرت سريعاً آخر مرة عند ذهابي لشراءِ عطرٍ ما وجدت شخصاً كان قد تزوج مُؤَخَّراً، يشكر بائع العطور لأنَّ زوجته أحبّت اختياره، فطلبتُ ذات العطر الذي انتقاه، وهو عطر رجالي ذو طابع مميز يدعى إسكايب (ESCAPE)، فكان اختياري الوحيد، أخذت أضع الكثير من رشات العطر.

نزلت بعدها منطلقاً نحو كورنيش البصرة، حيث شط العرب، أقف الآن أمام تمثال الشاعر بدر شاكر السياب، وهو أحد معالم البصرة الأدبية ورمز من رموز مدينة البصرة، الذي صممه النحات العراقيّ نداء كاظم عام (١٩٣٩) وأزيح عنه الستار عام (١٩٧٠).

انتظرت قليلاً، وبعد دقائق رأيتُ من بعيد ماري، يتطاير شعرُها شمالاً مرة ويميناً مرة أخرى، ورحت أتأمَّل تفاصيل جسدها ووجهها المضيء، وشفتيها الحمراء الممتلئة بينما تقترب أكثر أتاني شذى عطرها، وجدت نفسي خاسراً وتقبَّلت انتصارها هذهِ المرة؛ لأنَّ العطر الذي وضعته يا آدم لم يكن كافياً أمامَ عطرها ذي الرَّيا، وكان هذا يدهشني ويثير مشاعري نحوها عندما سمعت إيقاع كعب حذائها وهو يحرّك المكان بتلك السيقان

المتناسقة التي تَشرق بالضوء.

- ستُصابين بالبرد بهذا الفستان وأمرض أنا يا حلوتي؟
- سأجيد عِلاجكَ فأنا طبيبة، بابتسامةٍ عريضة.
- كنت بانتظاركِ، أتمنى أن يكون المكان لائقاً بكِ.
- لا تقلق، المكانُ جميل بحضوركَ.

كان عليَّ أن أُترجمَ المكان سريعاً وأن أسعف الموقف وأطلب شيئًا فسألتها:

- ماذا أطلب لكِ؟ وجبة خفيفة أم مشروب ساخن؟
- يُفضَّل مشروب ساخن.

قمت بطلب فنجانَي قهوة، وارتشف كلٌّ منا القليل منها، في حين لاحظت ماري محدقة في لساني، ولم أستطع مقاومة تلك النظرات حاسماً الموقف مرة أخرى، فقمت برفع حاجبي مغازلاً إياها، ولكي أحدث خللاً في استقامتها؛ لأنَّني وجدت نفسي بلا حَراك مشلولاً، ولا أجدُ سيجارة لأقتل بها قلقي، ولا سبباً لأفتح موضوعاً يقتل صوت ارتشاف القهوة والصمت هذا.

- لا تقلق، هناك مُتّسع من الوقت لطرح الأجوبة الكافية لما يدور في ذهنك.

قالت مبتسمة، أردفَت: هدوؤكَ سيجرّك إلى المستشفى، تكلم.

- لساني لا يخدمني الآن، قلت ضاحكاً.

بعد ذلك سلّطنا الضوء بحديثنا على المواضيع الهامة

كالدراسة وكيفية التغلّب على روتين الحياة والملل، كان النقاش بسيطاً، بدأت تنظرُ لي بشغفٍ ومتعة وهذا ما يجعلني أرتبك كطفل يركض مع نبضاتِ قلبهِ المدوّية باحثاً عن والدته وسطَ انفجار في سوقٍ ما، أخذت نفساً عميقاً بعد ضياعي في عينيها، واستمر الحديث عمّا حمل ماضينا؟ وما هي خططنا المستقبلية؟ إلى أنْ قاطعتني:

- هل أنت مسلم؟
- نعم، مسلم يعشق جرس كل كنيسة.
- وأنا مسيحية تعشقُ تلاوة القرآن بصوت الشيخ عبد الباسط، أردفت قائلة:

عندما يبكي أبكي معه وأشعر أنَّ المعاصي كلها تملأني، يجعلني أشعر بالراحة عند الاستماع إليه.

طال الحديث، رحت أخبرها أنَّني لا أهتمُّ كثيراً باختلافات الأديان والعرقيَّة والمذهبيَّة، لأنَّ الرب واحد، ولو كانت حبيبتي بوذيَّة لكنت اخترتُها من دافع الإنسانيَّة قبل الحب، ولأنَّ الجمال يكتمل بضمير حي يربط الأديان ببعض ويحارب الطائفية الفكرية، وإنَّ جميعَ الأديان السماوية سلوكياتُها جاءت واحدة متوحدة تحثُ على السلام والتكافل والترابط ورسم أجمل أخلاقياته.

راحت تردُّ عليَّ وكأنَّها تتحيز لي وتُجامل بفكرتها عن اعتزازها بالإسلام وحبّها له عن طريق اعترافها بأنَّه دينٌ عظيم، ومن ثَمَّ تحوّل الحديث عندما قامتْ بمراوغتي

وسؤالي:

- هل تؤمن بالحب؟

قالتها حاملةً نظرة اختلج منها قلبي، جعلتني أفكر طويلاً باحثاً عن جوابٍ مبهر أقنعها به، في نهاية الأمر أنا قارئ للكتب وهذا ما يتيح لي أن أنتقي جواباً مُبهراً.

- أجمل ما في الوجود هو الحبُّ.

قلتها وشعرت أنَّ كلمةَ أحبُّك تريد أن تخرج على هيئة حروفٍ مُتقاطعة تاركاً إياها في فهم لغز المسألة من عدمها.

استرسلت أَوضح لها إنَّ الحُبَّ شيء ليس له من الاختصار جملة أو كتاب فهو موسوعة من الأشياء المفهومة وغير المفهومة التي حيَّرت أغلب الروائيين والكتَّاب والمفكّرين بالترجمة، وعندما يأتي تفسيرُ الحُبِّ بالنسبة لي فهو تسليط التعب على نفسك، حيث يأتي على هيئة لعنة تختارها بذاتك، وتعرف عواقبها على الرغم من ذلك ترغب بارتدائه كرداء في ليلةٍ ثلجية غارسة البرد، ولا يسعكَ التحمّل فهذا الحُبُّ هو الشيء غير الآمن، كمعرفتكَ بنشوبِ الحرب حينها تعرف أنَّ الخسارة والفوز يَسقط منك الكثير أنتَ وما معكَ من أشياء أو أعضاء، فلا أستطيع أن أجدَ مختصراً له لكنني أعرف مدى خطورته عندما يُهاجمك حيوانٌ عنيف ويضعُ قَدمه أمامكَ فقط لعرقلةِ طريقكَ، وقد يكون بأشكالٍ مختلفة منها؛ اختلاف الأديان، التقاليد، الحروب، الأمراض،

الأجوبة الفكرية، التعاريف والفتنة، حينها يصبح العامل الفاصل لهذه المخاطر أحياناً التضحية.

- تجيد تفسير الحُبِّ، قالت ماري منبهرةً.

وأردفتْ قائلة:

- لم أتعاطَ الحُبَّ يوماً، لكن يقال إنَّه رائع!

- صحيح، إنَّهُ كالمُخدِّرات.

راحت تضحك بصوتها الجهوري، بعد نظرات على شاطئ شطِّ العرب جَعلتُها تُخبرني عن الكُتب التي قامت بقراءتها، راحت تنتقد بعضها وهي تُحرِّك يديها وجسدها بشكلٍ مُدهش، وتضع فيَّ الشك بأنَّها بارعةٌ في النقد، وبدأ الوقت معها ينجلي ولم أقمْ بتحريرِ المواضيع الكثيرة التي كنت أرغب أن أضعها على طاولة لقائنا لكنها اختفت بوجودها، ولم أتذكرْ إلا شيئاً واحداً وهو اختلاف ليلة لقاء صالح عن اليوم عندما أنهيتُ جلوسي معه وهو ينفخُ في وجهي رائحة الخمر الذي لا يجدُ مساحة لمقارنته أبداً مع أنفاسها، وكم كان شعوري نحوه مُقززاً عندما أنهى حديثه بالكراهية نحو شيخ لطيف، لكنني وجدتُ اسمه سيرة نتنة الآن فانتهيت عن التفكير بسيرته، وانتبهت لحجم اللقاء الذي بدأ ينفذ، وقد انقضت ساعتان، وما يفصلني عنها ليس سوى خمس أصابع للتنفس من زفيرها النقي فاقتربتُ قليلاً منها وسألتها:

- دكتور سعد في جامعتكم، ما رأيك به؟

أرسلتْ لي نظرة يائسة: لا يعجبني لا أعلم ما هو

السـر، قالتهـا وكأنَّهـا تخفـي شـيئاً مـا ثـم أردفـتْ قائلـة: إنَّه أستاذ جيد لكنَّه يحوي شخصاً آخر.

خمَّنـتُ مـن خـلال كلامهـا أنَّـه ذو طبـاعٍ حـادةٍ بعـد أنْ أخبرتنـي بأنَّـه تدريسـيّ فـي كليـة الطـب ويقـدِّم المحاضـرات كل أسـبوع أو أكثـر، لكـن حركاتهـا كانـت تنـمُّ عـن أنَّهـا لا تحبِّـذ هكـذا نوعيـات مـن الأشـخاص، مُتحدثـة عـن أغلـب الأسـماء بسـطحية مُبهمـة، لكـن ردودهـا عبقريـة تُعطينـي إيعـازاً غريبـاً! كأنِّـي أجلـسُ مـع خمسـةِ أشـخاص فـي آن واحـد؛ فيلسـوف، ثـلاث نُقّـاد، وكاتـب، وهـي تضـعُ الحـروف علـى الطاولـة وأنـا الملمُّ بمـا تطرحـهُ كُليّـاً كمحاضـرات علـم النفـس التـي رُبمـا أجـدُ فيهـا بعـضَ الأجوبـة التـي تنفعنـي فـي مـادة الامتحـان، ومـا تـزال تحـرّكُ المـكان باسـترسـال شـعرها علـى عينيهـا كأنَّهـا تتعمّـدُ إثارتـي جاعلـة بائـع الحلـوى ينتبـه لارتباكـي، ويخدشـني بشـتيمة مكونـة مـن خمـس سـهام لاذعـة عندمـا سـمعتُ صوتـه يرتفـعُ عاليـاً ليقـول:

- كيف تجلسُ وردةٌ مع وقح مثلك؟

كنـت سـأضع كُرسـيَّ جلوسـي فـي رأسـه لكنـي تلافيـت السـماع كأنّـي لـم أنتبـه، لكـن كلماتـه أثَّـرت بـي وقتلـت طعـم الموعـد؛ فانسـحبت وانتهـى اللقـاء بتبـادل إطـلاق النظـرات ودويٍّ صافـرات الإعجـاب.

عـدت إلـى البيـت حامـلاً أوقاتـاً مُختلفـة عـن الأيـام التـي مضـت، متفائـلاً بوقـت الظهيـرة فهـو مـن الأوقـات المحببـة لـدي، عِندمـا تفـردُ الشـمسُ أحضانهـا لِتدفئتـي، كنـت أسـير

الآن فـي مقربـة مـن بنايتِنـا، وأفكـر كيـف أنَّ حياتـي قـد تبدلـتْ وأصبحـتْ أجمـل!

عندمـا أمعنـت النظـر انتبهـتُ أنَّ السـيدَ (صالـح) كان خائفـاً يمشـي أمامـي، وصـار يمشـي بجانبـي مُتخلّفـاً عـن مشـيته الطبيعيّـة ممـا أثـار اسـتغرابي، راح يمسـح وجهـه المتصبّـب عَرقـاً كأنَّـه كان يركـضُ فسـألته: مـا بـك؟

أشار بيده خلفي نحو نهايةِ الطريق.

إنَّهم يلحقون بي، قال مرتبكاً.

- أهم أعدائك؟
- كلا، لا أعرفهم إطلاقاً، قـال ذلـك وهـو يلتقـطُ أنفاسـه، ثم أخـذَ يركـضُ مـن جديـد، وعندمـا التفـت إلـى الخلـف كان هُنـاك شـرطيان يحـاولان اللحـاق بـي، وصـلا مقربـةً منّي عندها سألني أحدهما:
- هل رأيت رجُلاً مرَّ من هُنا؟ فأجبتُ بالنفي ثم تركوني وراحوا يركضون باتجاهِ صالح، بعدها أسرعت خطواتي وصعدت سلَّم شقتنا، رأيت أُمي عِند دخولي مُقدمة بابنا، كانت تنظرُ في وجهي بريبة ربما لأنَّ لون وجهي قد خطف بسبب المشهد الأخير، فسألتني إذا كنت بخير؟
- بخيـر لكننـي أشـعرُ بالنعـاس، أغلقـت بـاب غرفتـي، ورحت أشـمُّ وسـادتي وأحتضنهـا كأننـي أحتضـنُ مـاري مُستسـلماً إلى النوم حتى السَّاعة السابعة (٧:٠٠) مساءً..

استيقظت بعدها وكانت الأخبار تضجُّ بخبر مقتل فتى في مقربة من شارعنا، في حين طريقة القتل قد حدثتْ نفسها في مدن مُختلفة في أرجاء العِراق وهذا ما تداولته الأخبار، مما جعلني أدخل في دوامة من التفكير وكيف أنَّ الشكوك تذهب سريعاً عند صالح الذي قد يكون هو من قَتل الفتى ظهر هذا اليوم، ولكن كيف؟ وهذا ما لا يُعقل أن يكون هو من قتل نفس الأشخاص في آنٍ واحد! وهذا ما جعلني أنزلُ إلى الشارع في هذا الوقتِ لمعرفة ما يحدث، فبقائي هنا لا يوصلني للأجوبة، تركتُ أهلي يتناولون طرح التُّهم على هذا وذاك في سبب مقتل هؤلاء الفتيان، نزلت السُلَّم وعبرت الشارع، عندها أشعلتُ سيجارةً؛ لِتتبخر فوضى الأنباء هذه من جُمجمتي، وأخذتُ أمشي وصولاً نحو محل لبيع الأطعمة الشعبية لأسدَّ جوعي، عندها وقف بجانبي شخصان يتحدثان عن موضوع آخرَ تماماً، راح الشخصُ الأول يسأل الآخر عن فاعل الخير الذي يترك كل فترة عُلب الأغذية وقليل من الدراهم أمام منازل الفُقراء ولم يعرفهُ أحدٌ إلى الآن، فقام بالرد عليه:

- رُبما هو الشيخ لطيف أو الشيخ رسول.
- رُبما كذلك، قالَ له وكأنَّه يثق بما نطق به صديقه، عندها أنهيتُ وجبتي ولم أحصل على خبرٍ يُذكر عن وفاة الفتى ظهر اليوم، توجهت بعدَها سيراً نحو البيت

محبطاً يخلو عقلي من أيِّ توقّع أو إجابة لما يحدث.

مـرّت الأيـام سـريعاً كالحـوادث المنوّعـة فـي بلـدي، وبـدأتْ تكمـل حلقتـي بمـاري يومـاً بعـد الآخـر، بعـد أنْ تحدثنـا لسـاعات طويلـة يوميـاً، أحاديـث وحكايـات الحـي وأخبـار الجرائـد بـدأ الحُـبُّ ينمـو شـيئاً مـا، وبـدأ التَعلّـق يـزدادُ رويـداً رويـداً دون أيِّ اعتـرافٍ صريـح منّـا، كان يبـدو أنَّ أحـداً منـا سَـوف يتجـرّد مـن خوفـه ويطلـقُ همـزة أحبُّـكَ ويتـركُ الطـرف الآخـر يستشـهدُ قَبـل اسـتكمال هَيبـة الكلمـة.

يصـادف اليـوم الجمعـة، خرجـت صبـاح اليـوم بعـد أنْ شـعرتُ بأنّـي بحاجـة لشـرب القهـوة وأنـا أتوجّـه إلـى مقهـى جمـرة الشـعبي وهـو مكانـي المُعتـاد وهـو مـكان يتواجـد بـه أغلـب كبـارِ السـن، كأنَّـه بيـتٌ آمـن للاسـترخاء، جلسـتُ فـي إحدى زوايـا المـكان، أمامـي طاولـة صغيـرة جـرداء قـد أخـذ الاسـتعمال والزمـن منهـا بريقهـا، وفوقـي إطـارات صـور قديمـة لصاحـب المقهـى (جمـرة)، أغلـب ألوانهـا الأسـود والأبيـض، ثلاثـةٌ مـن الصـورِ يبـدو بهـا جمـرة صغيـراً فـي السـن، يقـف أمـام عُمّـال مصرييـن أكبـر منـه سـنَّاً، يبـدو أنَّـه تعلّـم مهنتـه منهـم، ويجلـس أمامـي أشـخاص كالعـادة فـي زاويـة أسـفل درج يـؤدي إلـى مخـزن مـواد العمـل، هـؤلاء الأربعـة بـل الثلاثـة يختفـي هـذهِ المـرة صالـح عنهـم، فقـط (شـيخ لطيـف سـعد، هشـام أبـو تـراب) لكنَّهـم يخرجـون عـن المألـوف دائمـاً، فشـخص يشـاهدُهم أول مـرة سـوف يتسـاءلُ كيـف يجتمـعُ هـؤلاء ذو المهـن المُختلفـة مـع بعـض

دون أن يربطهم أيُّ عامل مُشترك! وهم يتناولون مواضيع عامة تخصّ السياسة والاقتصاد يتبين للكثير أنَّهم كبار المثقفين وهم يتبادلون أفكاراً خرقاء ويضحكون عالياً بضحكات تتجاوز أفكاري الإشهارية وتتجاوز إطار الأدب والحياء باستقلالهم خصوصية المكان كلياً.

أنهيت قهوتي وخرجت من فوضوية المكان، كانت حينها السَّاعة قاربت على الثالثة عصراً، وكان عليَّ أنْ أتفقَّد ماري حينها، وأخبرُها ما الذي حصل معي قبل أيام، اتصلت بها وأخبرتُها أنَّني بحاجة ماسة لرؤيتها، لم ترفض على الرغم من أنَّها كانت مُترددة من أنْ يرانا أحد مع بعض، لكنَّها تضع نفسها في المخاطر عندما يتعلّق الأمر برجل يهتم لأمرها كثيراً، كنت في انتظارها بعد أنْ مرَّت نصف ساعة حتى لمحت ماري آتية، التقينا في حديقةٍ عامة، بدا أنَّها قلقة ومرتبكة ومتعبة جرّاء عودتها من الجامعة.

وصلت مقربة منها، التفتتْ ماري نحوي بملامحٍ مرعوبة وقالت:

- ما الذي حدث؟ تبدو غامضاً!

أشعلت سيجارتي بحركة هادئة لا توضِّح حجم القلق الذي يعتريني، كانت تنظر إليَّ والخوفُ بادٍ على مُحيَّاها، فقُمت بسحبِ يدها ومَسكتها بِكلتا يدي ورحت أخبرها ما حصل معي بعد عودتي منها عن حادثة صالح، ومقتل الفتى والآخرين بالطريقة نفسها، وكم كانت شكوكي نحو

صالح تبدو مُبهمة تحمل التناقض الذي لا يُمكن أنْ يدلّني على حقيقة واضحة، وكان عليَّ أنْ أجعلها تفكّر معي في هذا المأزق وكم هي خطورته عندما أكون شاهداً لا يحمل دليلاً قاطعاً نحو رجل يبدو أنَّه شخصٌ يحمل الغموض في سلوكيّاته، حينها راحتْ ماري تدرك أهمية الأمر وتعطيني أفكاراً وحلولاً بأنْ أقطع الشك باليقين قائلة:

- الجميع مرعوب من حادثة مقتل الفتى.
- أتوقع الأسوأ، قلت.
- لا تُعقِّد الأمر أكثر فالحقيقة ستظهر أخيراً، وأردفتْ قائلة:

لكن لو راقبه أحدهم سوف يجد تلك الحلقة المفقودة في هذا اللغز.

- نعم، فكرة جيدة، قلت.

وجدتُ فكرتها جهنميةً، ومن حِيَل فِرق التحرّيات والمُحققين، لكن في الوقت ذاته راحت ترسل إليَّ نظرة قلقة متوسّلة أنْ أتوخّى الحذر، وأنْ لا أرعبها كهذه المرّة، وأن أكون بخير، فرحت أُطمئنها وأكمل ما بدأت به من أخبارٍ مخيفة، ولكن هذه المرة عن فاعل الخيرِ الذي يثير الجدل أكثر من حوادث القتل، حينها أخبرتني بأنَّه بارعٌ جداً في تقديم الخيرِ ويصعب على الكثير التخمين باسم الأخير لكنَّه عمل عظيم ومفرح حتى سألتني:

- هـل تتوقـع أنْ يكـون الشـيخ لطيـف؟ فأجبتهـا قالبـاً المُعادلة:
- رُبما يكون أنتِ فوجهك يثمرُ بالرزق، راحتْ تَضحك.
- أبـدًا أبـدًا، لـن أخفـيَ ذلـك عليـك، قالـت، وهـي تتلفـت يمينـاً وشـمالاً تلمِّـحُ بـأنَّ الوقـت قـد تأخّـر جـداً، وكان علينـا الانصـراف تفاديـاً لمصيبـة رؤيتنـا مـع بعـض، فقمـتُ بتوديعهـا متوجهـاً نحـو منزلـي مليئـاً بالكثيـر مـن الارتيـاح والطمأنينـة جـرّاء مـا سـمعته مـن حديثهـا الـذي كان جرعة مخدِّرة لبعض الوقت.

عـدت أحتضـن وسـادتي مـع تفكيـر عميـق بهـذه الليلـة التـي أحببتُهـا؛ لأنَّهـا اكتملـت بمـاري وهـي أكثـر مـا أفكـر بـه فـي الفتـرة الأخيـرة، كنـت أرفـع وسـادتي عاليـاً وأتخيلهـا وجـه ملهمتـي مـاري مُخاطبـاً إياهـا، وأقـول لهـا أنْ تعبـث خـارج نطـاق ذاكرتـي؛ فأنـا إنسـان مسـتقلٌ قيـد النسـيان مـن الماضـي والخطـواتُ السـلبية مـن جانبـي الفوضـوي، كنـت أتوسّـل بهـا أنْ تدعنـي أتناسـى قبـح الأيـام التـي مـرّت، والوجـوه العابـرة والابتسـامات المُبهمـة والأصدقـاء الأعـداء وبـؤس الروتيـن، فهـا أنـا أمـام مُتسـع مـن الأمـل والتفـاؤل بالمسـتقبل المشـرق الـذي أتمنّـاه حافـلاً بإنجـاز يرفعنـي عاليـاً ولا أعلـم إنْ كنـتِ مـن ضمـن الأوقـات القادمـة؟ فـكل مـا عليـكِ فعلـه أن تُحـددي موقفـكِ الآن، إمـا أنْ تُكملـي معـي أو تذهبـي بعيـداً عـن مُخيلتـي وتدعـي الأيـام تفعـل مـا تشـاء،

سـأتقبّل مـا يحـدثُ حينهـا إذا كانـت حياتـي مشـتركة بـكِ أم لا، أمـا الآن أشـعر بفـرحٍ عـارم معـكِ كأنهـا لحظـةُ هـروب طائـر مـن سـجّانه فـي قفـصٍ يفتقـد للحريـة..

هذيان وثرثرة طويلة، أغفو..

الفصل الثالث

ربما الإنسانية تؤدي إلى القتل!

في عام ١٩٩٨ من داخل مدينة الهارثة التي تقع في شمال شرق محافظة البصرة في الضفّة الشرقيّة لنهر الفرات.

ضحك كلُّ الموجودين معي ضحكةً كالبكاء؛ والدتي، أخي الأكبر يحيى، الأصغر فادي، فدخل والدي الحجرة، يحمل تلك النظرات الحانِقة حتى فرق هذا المرح الذي حصدناه جرّاء ما أبدته أختي سارة من كياسةٍ وضجر، وهي تُجمجم وتهذي بسرعة بعد أنْ تمَّ فصلها هيَ الأخيرة من المدرسة، ولم يتبقَّ سواي من يتمُّ حسده على ما تبقى له من أيام الدراسة المعرضة للفشل بواسطة أبي، بعد دقيقة من مقاطعة والدي لسعادتنا تبخَّر الجميع ولم يتبقَّ في المنزل سوى أمي وسارة التي انخرطت في البكاء تحت سريرها في غرفتها.

ذهب أبي ويحيى نحو الديوان المخصص لتجمع وجهاء القرية فيما خرج فادي لإكمال ما يحتاجه العمال في مزرعتنا والحظيرة، فنحن عائلة ميسورة ولا يجتمع بعائلتي إلا من هم بمستوى ذلك، لكننا نفتقد للأمان والهدوء، نفتقد لمفهوم الحريات كان أبي لا يكاد أنْ يلتقي

بشخصٍ مهم لا يتردد عن ذكره يوماً وهم: (أبو أدهم) الملقّب بالشيخ جرّاح، كان من وجهاء القرية، فهما لا يكفّان أنْ يزجيا معظم وقتهما في المرح الحلو والبال الخلو.

في تلك الفينة أحسستُ بأنَّ سارة تحتاجني الآن ولن أتردد عن مساعدتها، فاقتربت حتى أخذ مقبض باب غرفتها ينفتح معي بهداوة، دخلت نحو من ألِفَت نفسها وحيدة تلك من أفضى بها الحد العاثر إلى الارتماء، ارتميت نحو السرير أمدُّ لها يدي فرفعت رأسها تحملق بي بتلك العينين النجلاوين بعطف رغم أنَّ الألم يحيز في نفسها حزاً شديداً، فأخذت تمسك ذراعي حتى خرجت وهي تضمّني بأحضانها كما تفعل الوالدة مع رضيعها بعد عملية الإنجاب، وما تزال تتشبَّث بي خوفاً من هذا المجتمع الذي هصرها وأخذ يعصرها حتى التبخر.

كانت قد تفتحت أكمامنا في مدينة الهارثة ذات الطابع العشائريّ الحاد، كانت والدتي أحوج ما تكون إلى العائلة أكثر من المأكل والملبس والمرقد، فهي حتى اكتمل عودها تزوجت أبي مباشرة، عاشت مع هذا اللئيم وتنازلت عمّا كانت تتمناه في ذلك المنزل السعيد رغم الفاقة والإملاق، فهي جاءت من عائلةٍ فقيرةٍ جداً نحو عائلة ميسورة، لكنها تفتقد إلى السعادة، وكم يبدو هذا واضحاً عندما تتلقَّى هذه المسكينة أضعاف ما نتلقاه نحن! فهي تأخذ حصصنا من العقاب والمخالفات، مع

ذلك لم تكن والدتي وحدها من تعاني، سارة الصغيرة تلك النائمة في هذه الليلة أيضاً لا تستقبل أيّ ضمانٍ لخير معاملة، ولربما كان فصلها من المدرسة خيراً لها مما هو متوقع الحصول إذا ما تواجدت، علَّها تتخلَّص من الخوف، هذا ما قاله الأطباء بعد أنْ تمّ تشخيصها مصابة بالتوحد (الانفصام الطفولي).

فُصلت سارة بعد أنْ قامت بضرب طالبة دون قصد كما قالت، ذلك حينما تلقّت كمَّاً من التذمّر المعتاد وسخرية الجميع منها مما جعلها سريعة الغضب والذعر والاضطرابات والألم، ألمها من أجل عدم حصول الأذى قد تسبب لها اليوم بصفعة مدوّية، لوحدها هذه الطفلة من لا تحب أن يتعرّض أحدٌ للأذى فكيف قامت بضرب شخصٍ ما دون إرادة أو دِراية كما ادّعت؟! لكنَّ قوانين المجتمع عنيفة يمكنها أنْ تحوّل الإنسان إلى وحش بسهولة، كيف لا وهي تعيش في طبقةٍ متهوّرة، متخلّفة يصفق بها الكثير للناجحين فقط، ولا يصفق للإنسانية والأخلاق والتطور.

لطالما حذرتني هذه الصغيرة من اللعب في الأدوات الحادة رغم أنَّني أكبر منها سناً فهي ما زالت في العاشرة من عمرها، أمّا أنا فقد بلغت من العمر سبعة عشر عاماً مع ذلك كنت أستمع لها كما أستمع لأساتذتي، كانت تكره أصوت السكاكين والضوضاء والصّراخ، حينما يقوم أبي مثلاً بضرب والدتي تدخل حجرتي مفزوعة تأكل في

أطراف أصابعها ذعراً وهي تقول:

«أحبكِ أكثر من والدي».

كانت تحمل من الإنسانية الشيء الكبير، ليس فقط من أجلنا بل الجميع؛ البشر الحيوان، والجماد، ربما هذه الحالة لم يكتشفها الأطباء أو لم يتسنَّ لهم الوقت فنحن في حالة حصار ووضع البلد مضطرب، كانت تخاف من كل شيء يتعرّض للأذى، أذكر يوماً ما حينما ذهبنا معاً إلى السوق صحبة أخي يحيى الذي تركنا لبرهة من الوقت ووعد أنّ يعود؛ كي يتسنّى له شراء السجائر خيفة أنّ نراه ونَشي به لأبي، حينها لَمحْنا شخصاً يهدد ويصرخ بالقرب منّا، إنَّه سيفجر نفسه إذا لم تسترجع الدولة بيته المسلوب حسبما ادَّعى، كان يقف بالقرب من بائع الحلوى الذي يتجمهر حوله الأطفال، لم تدم سوى ثواني حتى وصلت الشرطة التي تلاحقه على دفع ضرائب السكن العشوائي، لم يتسنَّ لي الإمساك بسارة جيداً حتى خرج صوت فضيع جعلني أفكر في أنَّ طبلتي الأذن قد غرس أحدٌ ما شيء في داخلها، هرب من هرب وسقط من سقط واختلط اللحم باللحم حتى ذوي الأطفال قد فرَّوا هاربين، أما سارة صرخت بالبكاء ودلفت نحو الجثث، خلعت يدي تركض في اتجاه الحادث في حالة هستيرية وهي تحاول أنّ تستجمع أشكال هذه القطع التي كانت قبل الآن جسداً متكاملاً، لحقت بها فيما هدأت الضجة، وقفت قرابتها مفزوعة بما يحصل، وقف شعري واقشعرّ جسدي، فيما

سارة جَثَت على الأرض منهارة تصرخ كما لو أنَّها مَن تعرّض إلى تمزقٍ جسدي، غير أنَّها لمحت طفلاً مازال مكتمل الجسد في زاوية قريبة من مكان الجاني، عادت تركض مجدداً تدنو عليه وتنادي بصوتها الجهوري: هل أنت ميت؟ دون أنْ يستجيب، وقفت منتصبةً على قدميها وقد طار صوابها وتولّاها خوف مجنون، مكثتْ تحدِّق به وسط صراخ وبكاء من عاد وتجمهر فوقنا، اقتربت إليها وشرعت أهزّها أملاً بالتخلص من خوفها الحقيقي، حينها أشارت لي نحو ما تبقّى من الأطفال وقالت:

- أين ذهبوا؟

- إلى النعيم يا حبيبتي.

أذكر أيضاً يوم السبت حينما ذهبت معي إلى الخياط لإكمال حياكة ثياب العيد، حينها قام رجل الشرطة يضرب لصاً ما حتى الموت؛ لكون الأخير يسرق الخبز ويبرر فعلته بأنَّ عائلته جائعة ولا يملك ثمن الشراء، لم يتسنَّ لي التأكد من بقاء سارة بمكانها إلى جواري حتى انطلقت نحوه بشراهة فانقضَّت عليه انقضاض الباسق على ظهرها بين الجسد واللباس الرقيق، كنت مندهشةً من كون هذه الطفلة المهيضة أضحت وحشاً! أخذت بضربه بعشوائية ظنّاً منها أنَّه سيتركه، وظنّاً منه أنّه والدها حتى نفض رداءه من يدها زاجراً.

أنَّى لي أن أنسى الخامس عشر من أيلول

حينما كنّا خارجين مع أخي فادي إلى المزرعة نظراً

لتمتع المدينة بالتربة الخصبة بالإضافة إلى مرور نهري دجلة والفرات فيها، لذلك تُعد الزراعة هي النشاط الاقتصادي لغالبية سكانها، إلى جانب ذلك كان هناك العديد من العوائل التي تعمل على رعاة الغنم والماعز وتربية الخيول، في تلك اللحظة أخذ الراعي الذي يراصف مزرعتنا بضرب المواشي بالسوط بقسوة، جلدٌ ميت يَصفع جلداً حيّاً، حينها بدأت سارة تنهش من البكاء وتحرك بقدميها كحصانٍ متهوّر أو كَثورٍ عرف أنَّ موعد ذبحه قد حان، كانت تتهيأ لردعه وهي تتجسَّم فيه النقمة والكراهية، لكن أنّى لها ذلك وأنا واقفة لها بالمرصاد، فهؤلاء المزارعون لن يتهاونوا أنْ يخبروا والدي بما حصل وسوف تحل علينا لعنة من العقاب، أخذت بتهدئتها وصبرت نفسها الخائرة وعللتها بالفرج والنجاة.

كانت أختي مختلفة أكثر من اللازم، لِبرهة ظننت أنَّها إنسانة لربما ليست من ذوي البشر! يبدو ذلك مؤكداً حينما لم تترك شيئاً يلامس الطفولة في هيكلتها، فهي لم تلعب يوماً مع الأطفال، ولا تُحب الدمى، ولا تزاول الرسم أو الركض كما يفعل من بِعمرها، كانت تفكّر بما لا يجرؤ أحدٌ بعمرها على التفكير به، كانت تعصر أذني وذاكرتي دوماً حينما تقول أريد أن يموت الجميع دون أن يشعروا بالرعب أو الخوف هكذا نموت بسهولة دون أذى أو ألم، وهذا يذكرني بذلك المشهد الذي لا يخرج من مخيلتي حينما كنّا في طريق العودة من المزرعة إلى

البيت يوماً ما، حتى أقترب حِذاءَنا كلبٌ ضالٌ لا يجرؤ على المشي بصورةٍ صحيحة، قادم من اتجاه أصوات الأطفال الملاحقين له والذين سببوا له الأذى على ما أظن، كان يمرر أنفاسه الأخيرة قبل أن يصل إلى وجهته نحو أحضان سارة التي ما زالت الرجفة ترعد فرائصها ولا تفتأُ تشتم وتقذع في السباب، وقعت سارة مكانها تحتضن الكلب، تشعر بألمِه وتواسي جراحه، أخذت تستشعر بما تبقّى له من ثوانٍ معدودة لوداعها، حتى أخذ يرتجف، رفعت رأسها نحويَ كأنَّها تخاطبني بملامح مُنطفئة، ترسل لي نظرة اختلج منها قلبي، لم تحجمْ عن العويل حتى جعلتني اتنهّد معها، عادت نظراتها نحو من ترتعش إنسانيتها لأجله، بعد أنْ شعرت بصوته المتحشرج قد اختفى، تحسست وجهه وأغمضت عينيه وعادت تنظر في وجهي وقالت:

- إلى أين سيذهب؟

- إلى النعيم يا حبيبتي.

لم أتمكّن من جعل سارة تغادر معي حتى نقوم بدفنه، حينها قُمنا بحفرِ قبرٍ صغير ووضعناه في داخله وغطّيناه بالتراب، عدنا فيَ الطريق إلى البيت بعد نفاد كل الطاقة فيما سارة هادئة! بعد أن سألتها أأنتِ بخير؟ أجابت بصوت حزين: لماذا لا يعاقب اللّه مَن قتلوه؟!

قلت لها ما سوف لن يقنعها: لكلٍّ منا يومه، هذه ساعته.

قالت بعنفوان: ليست ساعته، قتله البشر، وكان عليّ

التصـرّف، إنَّهـا غلطتـي، أردفـت ليـس يومـه.

لطالمـا كانـت كلماتهـا تجعلنـي أُشـكك بـكلِّ شـيء، وحدهـا سـارة مـن تطبّعـت بغرائـز ليسـت مـن صفـات عائلتـي، كانـت تتصـرف كمـا لـو أنّهـا تمتلـك ذنـب الآخريـن رغمـاً عنهـا، أيضـاً الحـزن والألـم للآخريـن، وهـذا إرث غيـر متـاح دومـاً، حقـاً بعـض الغرائـز تصـل إلـى مرحلـةٍ متأزمـة فـوق مسـتوى الإنسـانية حينمـا تتغلغـل فـي المشـاعر.

السـاعة الرابعـة والنصـف عصـراً، عـدت مـن المدرسـة متعبـة، ولجنـي أخـي فـادي بصحبتـه سـارة بعـد أن قاطعـت مسـيرهم متسـائلة: أيـن تتوجهـون؟

أجابنـي فـادي بسـرعة يكمـل طريقـه: إلـى المزرعـة! كان يبـدو غريبـاً توجههـم هـذه السـاعة إلـى المزرعـة فالعمـال يقومـون بباقـي الأمـور، فمـا السـرُّ الـذي اقتضـى الذهـاب فـي هـذا الوقـت؟ لكـن التعـب ومـا يفعـل جعلنـي أتـرك الأمـر وأكمـل توجهـي إلـى حجرتـي فقـد أخـذ منـي الجـوع مـا أخـذ، وبعـد مـرور سـاعتين تـراءى لـي مـن آنٍ إلـى آخـر أنَّ هنـاك شـعوراً بعـدم الراحـة قـد انتابنـي، وإنْ صـحَّ مـا توقعتـه سـتقع مشـكلة! فقبـل أربعـة أيـام مـن الآن جاءتنـي سـارة تشـكو مـن فـادي بسـبب أنَّ الأخيـر يتلمَّـس جسـدها بطريقـة غريبـة، لكـن دون وعـي منـي أو غبـاء، تركـت الموضـوع غيـر مكترثـة أو ظنـاً بـأنَّ فـادي كان يلاطفهـا لا أكثـر، أجبتهـا بأنَّـه لا يقصـد شـيئاً غيـر المـزاح معـكِ، رغـم معرفتـي أنَّ أخـي لا يمتهـن شـيئاً غيـر السـرقة وشـرب الخمـر فَمِـن غيـرِ المنطقـيّ أنْ

لا يخرج منه شيء سيء، أخيراً تحرّك الشك في داخلي فانتصبت على قدمي جاحظة منهكة تناهى لي في تلك اللحظة صوت خافت يقترب من مكانه، وقبل أنْ أحرّك ساكناً دخلت سارة تدفع باب حجرتي بقوة مصدومة، كانت تبدو كمن تعرض إلى صعقةٍ كهربائية بمنظر مبعثر وعيون مفتوحة أكثر من المعتاد، ماذا أيضاً سكين يلمع نهاية ثوبها!؟ تحاملت على نفسي وكتمت على نفسي دون صوت مخافة أنْ يسمع هلعي شخص ما، أدخلتها معي وأغفلت الباب، أخذت منها السكين واحتضنتها دون أن تنبس ببنتِ شفة، بعد مرور دقيقتين شعرت بأنَّها قد هدأت وصار من المعقول أن أطرح تساؤلاتي:

- أين فادى؟ لكن دون جدوى كالعادة دون إجابة، أعدت سؤالي مجدداً، أشارت بيدها نحو المزرعة مع عويل قد كتمته بيدي كي لا يسمعنا أحدٌ ما، كنت قد عرفت أنَّ هناك شيئاً مروعاً قد حصل، وهذه الدماء لا تخرج إلا في حالة الذبح لبهيمةٍ ما أو في حالة نحر أحدهم، نظفت ملابسها وغسل كلانا يديه وخرجت معها كي تدلني بما حدث.

في الخارج نفحتنا الرياح الباردة حتى ارتجفت، فيما سارة مستسلمة لذراعي والبرد وكل شيء كالعمود بدا لنا أنَّ الظلام المحيط سيبتلعنا ونتعذب حتى نعود إلى النور يا إلهي نحن نتوسّط الطريق الخالي من الناس في

الظلمات، لن يتصوّر العقل إلا الشر، ولن يستعدَّ أنْ يرجم به حين تظلم العين، ليس لنا إلا الله وحده من يردع الشر والإنسان هذا العبد الحقير الذي لا يتورّع عن ممارسة المنكرات والسيئات، تنفسنا الصّعداء وخنقنا الزفرات، لكن سارة عادت تنتحب خيفة مما حصل أو خيفة من الله الذي سمعها ورآها وحده، طغى علينا اليأس، وبدا أنَّ الألم أنشب مخالبه داخل روحها، فصاحت بصوتها البريء: هناك فادي، فقلت في سري (أواه !..يا إلهي.. يا إلهي..)

كانت الحظيرة لا تبعد سوى كيلو متر عن منزلنا، وصلنا منتصف الطريق بالقرب من بناء قديم أكل الزمان منه أطرافه، وهدم بعض ما قام من جدرانه، سمعت الكثير يتحدث عنه أنَّه بيت الأشباح ولن يسلم منه حتى من يستريح قرابته، فسارعت خطواتي أتجاوز ما لا أرغب بتخيله، بينما تعدينا أشارت لي سارة نحو الحظيرة التي تراصف المزرعة، ويخرج منها نورٌ يطلُّ من إحدى نافذاتها، مشينا بجميع حواسنا المرهفة، نراقب سكون الليل إذ تناهى لنا سماع طيران الفراشات، دار في خلدي أنَّ هذا المكان مناسب للهدوء وصفاء الذات لا لمشاهد كئيبة محزونة، يبدو أنَّها ستكون إحدى الليالي الخاصة للزهايمر أو تصنع ذلك للنسيان، كانت هناك حديقة صغيرة تقع بالقرب من هذا المكان المهجور، فقد انتشرت في الحديقة القريبة منه نخيل التمور وأشجار

متنوعة تتشابك فيما بينها، لن يعوزنا شيء غير نهاية مطمئنة في هذا الهدوء المخيم والظلام الشامل، لم تدم سوى ثلاث دقائق حتى وصلنا، دلفنا نحو باب الحظيرة، وعندما اقتربت من مقبضه تراجعت سارة تنهش من البكاء جعلت معها الهواء يتحرك، هبَّت نسمات قارسة، دخلت لوحدي، حتى اقتربت من النافذة وأسدلت الستارة، كانت تبدو كل الحيوانات نائمة أو خائفة! لا أعلم حقاً وسط هذا السكون لكنني رأيت في وسطها شيئاً مستطيلاً كأنَّه إنسان يرقد رقدة الموت، يرتدي ملابسَ ربما ارتدى مثلها فادي يوماً، توقف شعري واقشعرَّ جلدي، لم أشهد طوال حياتي هكذا منظر، لم أشعر يوماً بمثل ما شعرت به ساعتها من الرهبة والقلق والخوف الرهيب وثبتُّ إلى الخلف ثم هربت بأقصى قواي إلى سارة ولم أتلفت إلى الوراء، رأيت حينها من الأجدر أن أتأكد فيما إذا كانت هذه الجثة لأخي من لسانها، دار في خلدي أنَّ الأمور لن تعود إلى عواهنها إذا تأكد ما حدث، سوف يبتلعنا والدي قبل العقاب وتتدهور أمور البيت أكثر مما عهدناه، كانت نظراتي نحو وجه سارة الوسيم الطاهر يجيبني أنَّها لن تفعل ذلك إذا ما حرَّضتها كل جواسيس الجن وأشرف على ذلك إبليس بنفسه، جلست قريبة منها وحدّقت في وجهها مليّاً ورفعت رأسها بيدي وقلت أخاطبها بكل أُلفة: قتلتيه؟ حينها أجابتني بكل برودة أعصاب دون أي خوف يهددها وقالت: استحق ذلك.

دار بخلدي حينئذ أنَّها لم تفعل ذلك عن قصد إذا ما كان هناك فعل توجب ردة فعل عنيفة هزّت الرعب في داخلها، هل مات أخي؟ وقفت منتصبة وقد طار صوابي وتولّاني خوف مجنون، مرّت ربع ساعة أعجز عن إيجاد تفسيرٍ لما حدث، دنوت من سارة حينها، فألفت نائمة تبتسم ابتسامة الملاك وتختلج عيناها اختلاجة البراءة والرحمة، تركتها بعد أنْ استعدت رباطة جأشي وعدت إلى الداخل، وجدت (فادي) ملطخاً بالدم، كان سرواله منزوعاً إلى المنتصف، وبالقرب منه صندوق ممتلئٌ بالأدوات الحادة التي يحتاجها البعض في الجزارة، تأكدت حالاً أن محتويات الصندوق كانت وسيلة سارة للدفاع عن نفسها، لم أتمكَّن من النظر إلى جثته سوى مرتين؛ واحدة حينما تأكدت من هُويته، والثانية حين جررته إلى الخارج، حينها لمحتني سارة، كانت مستيقظة وجاءت لمساعدتي في إخفاء الجثة التي لن يعلم عنها أحدٌ منذ الآن.

فكّرنا أنْ نقومَ بدفنه داخل الحديقة لكنَّها لم تستجب بعد أن حذّرتني أنَّه من السهولة أن ينكشف أمرنا داخلها، اتفقنا أن نجد له مكاناً مناسباً، فلم يكن في ذهني غير مكان واحد ربما لن يتمكن عاقل من التكفير به أو الاقتراب منه، إنَّه ذلك المنزل المهجور لكن والخوف؟ لا خوف أكثر مما هو قادم، فكرت بكل شيء وأنا أرسم هذا المخطط، زاولت مكاني بسرعة كي لا يشاهدنا أحد المزارعين القريبين منّا، وربما أخي قد قام بصرف الحارس لبعض الوقت

وربما يعود في أيّ لحظة، وبعد أن أتعبني التفكير وحيّرتني المصيبة، رأيت أنَّ من الأفضل أن نضع جسده في عربة تسهل نقله بسرعة، رفعنا جثته بشق الأنفس ووضعنا فوقة كومة ملابس، وأخفينا تحتها الفأس الذي ربما سينقذنا، انطلقنا بسرعة وصولاً إلى جنبات هذا المكان المخيف كان هذا البناء المنهار من طابق واحد متآكلة مغاليق نوافذه، في داخله غرفتان ظليلة وقاعة طويلة منهارة معظم أجزاء سقفها، وفي الخارج مساحة مفتوحة تبدو كأنَّها مقبرة مصغرة لعائلة الأشباح، أما المتبقي منهم يراقبنا بصمت، خِيلَ لي أنَّهم يرون ما نفعله بأخينا، خيل لي أيضاً أنَّ أحداً منهم سوف يصرخ في وجهي: إنَّه مكان أمين لفعلتكم .. تركت هذه التخيّلات وقمت بحفر قبر يتسع لنفرين، تمكّنّا مِن دفنه بصعوبة ورممنا الأرض كما لو أنَّه لم يدسها أحدٌ من قبل.

بعد أن انتهينا من إخفاء جريمتنا ذهبنا مسرعين إلى البيت حتى لاقتنا أمي تزيد من خوفنا قائلة: (إنَّ مَن يجلس داخل البيت الآن مع أبيكم هو الشيخ جرّاح مع ولده أدهم)، ولو كانت حالتي على عادتها الطبيعية لتساءلت عن مجيء أدهم مع والده في هذا الوقت المبكر وغير المعهود.

دلفنا أنا وسارة نحو أسرَّتنا منصاعَين لكل ما تطلبته هذه الليلة، كلٌّ منا يرتعش خوفاً أو برداً، لا أحد منّا يعلم، فكل ما نعلمه أنَّ أخانا قد توفي الآن ولا أحدَ يعلم بذلك، حتى قاطعتني سارة بكل ألفة كما لو أنَّها لا تعرف

ماذا فعلت: ماذا يفعل الشيخ وولده عند والدي في هذا الوقت؟

فأجبتها بأني لا أكترث، حينها عاودت سؤالي:

- ترى أين سيذهب أخي فادي الآن؟
- لا أدري حقاً، أجبتها واغرورقت العين.

بعد أن أقفلت باب غرفتي، خرجت أصوات الجميع دلال.. دلال.. دلال.. الكل يناديني داخل المنزل، تراءى لي أنَّنا قد انكشفنا، يبدو أنَّ أحد المزارعين قد لمحنا نقوم بفعلتنا ووشى بنا إلى الشيخ جراح وهو هنا الآن ليوقع بنا، اللعنة لما هو قادم، أنا من خططت لهذا كله وسوف أتحمّل كل المشكلة، فمن غير المعقول أن تتحمل سارة زنزانة ما أو مصحّاً عقلياً لا يخرج منه البشر إلا وهم مجانين فعلاً، من الضروري أن يقع كل شيء على عاتقي حتى لو كانت هذه المصيبة مزروعة للأغبياء يضعها واحدٌ من العائلة، لن يتلقّاها إلا من يحب المرور وزيارة فرد يقطن غرفة ما داخل أروقة المنزل، فرد يتكفّل الإنسانية تكلفاً، وربما تنبع الإنسانية من الطبيعة، العاطفة، الرغبة، الإكراه، لكنَّها لا تنعدم حتى وإن وقعت بالخطأ، لا بأس أن تكن قذراً لبعض الوقت، لمرة واحدة، سواء تعمدت ذلك أم لا، كل ما عليك فعله هو النضال من أجل عدم تكرار ذلك، لا بأس أن أرى أختي ملاكاً، سامحوني، لوحدها ابتسامتها كانت مفتاحاً للإنسانية، هذا ما فهمته عن داخلها الروحي، كان منبر الإنسانية

جوهرها الروحي وقلبها الحساس، لا أحدَ علمني دروساً بذلك بقدر ما علمتني هذه المخلوقة الهشّة، الإنسانية تعطي دروساً حتى في الخطيئة، عندما يكون الخطأُ فخّاً أو قدراً خائناً.

فتحت باب غرفتي وإذا بأمي تلكزني قائلة: ما يريح قلبي ويطيح بكل ما تصورته عرض الحائط رغم أنَّ ما خرج لم يكن على الحسبان ولا يعجبني بالمرة: إنَّهم هنا لخطبتكِ..

- من تقصدين؟

- الشيخ جاء يطلب يدكِ لولده أدهم.

لم يكن الوقت مناسباً للمشاجرة أو للرفض أو لسماع شتى كلمات أبي القاسية، كلُّ ما كنت أفكر به هو أن تنتهي هذه الليلة، لم أنبسّ ببنت شفة حينها، وهذا ما جعل والدتي تظن بي علامات القَبول فولَّت ضاحكة الوجه، حينها سوّلت لي نفسي رؤية سارة قبل أن يطرأ أمرٌ جلل آخر، عدت إلى حجرتي وعندها وجدتها نائمة، فقمت باحتضانها حتى داعب الوسن عينيَّ فغفوت.

في الصباح الباكر، استيقظ الجميع بعد أن استشعر الكل اختفاء أخي فادي، فيما أنا متغيّبة عن المدرسة بسبب كل الفوضى التي تشوب المنزل، أوضحت لسارة كل شيء فيما إذا سألها أحدٌ عن فادي حينها ستكون إجابتها لا أعرف وهذا ما جرى طرحت كل التساؤلات فيما إذا أحدٌ منا قد لمح أخي آخر مرة، سألني أبي وأمي وأخي

الأكبر فقلت لهم إنّني لم أشهده منذ البارحة.

مرّت خمسة أيام، الكل يبحث لكن دون جدوى وما زال أخي مختطفاً أو مقتولاً حسبما يتكهّن أهلي، لا أحدَ يعرف ذلك غيري أنا وأختي، لكن عائلتي كانت متأكدة من عدم رجعته بعد أنْ تصاعدت التنبؤات من أصدقاء أخي الذين طرحوا أجوبة مختلفة عند التحقيق معهم، فمنهم من قال إنَّه صعد إلى الحرب ضد الاحتلال، وقسم آخر قال ربما هو محتجز لدى القوات الأمريكية، وقسم آخر قال بأنَّ فادي كان يفكر بالمهجر كثيراً وقد سأم العيش في العراق فولّى خارج الحدود، أما أنا انقلبت حياتي رأساً على عقب بعدما أخذ أبي موافقتي بالزواج من أدهم دون علمي أو أن يعرف ما بخاطري فليست هذه سوى البداية..

الفصل الرابع

2012/2/26

أجلسُ صباح اليوم أمام طاولتي أُعالج مسرح المدينة، وقد كان اختباءُ صالح يثير بي الشكوك، ويجعل إدانتي نحوه باطنية من غير أدلة ملموسة، وهذا الشروح لا يؤدي إلى شيء، يشبه تماماً موقفي من أعلى شرفتي عندما يكون شيخ لطيف عازفاً عن قراءة آخر الجرائد اليومية، وهو يتدلى بكرسيه المتحرك كما عهدته أمام زوجته فلم يعدّ موجوداً هذه الأيام، فقمت بترك الشرفة والنزول إلى شارعنا المُدجج بصور المفقودين، عندما يستمر مشهد الرعب متواصلاً، عندما يتعلق الأمر بسحق رؤوس الصبية بعد توجيه اتهامات لهم بالمثلية وعبادة الشيطان، وما زال مشهد موجات العنف في العراق مشحوناً بالمخاطر في هذا المسلسل الدامي الذي يثير مخاوف الكل عندما يستمر استهداف الشباب ما بين الأعمار (١٤_٢٠ عام) والذين تم تعذيبهم بأبشع صورة، عندما يتم رجمهم بالحجارة وتشويه رؤوسهم الصغيرة، وهذا الأمر يتكررُ في ليلة وضحاها، ومازال الكثير من الشباب مفقودين لا يعلم ذويهم أين أبناؤهم، ينتظرون رجوعهم تحت مسمى (مختطف)، وكل الشكوك تسقطُ

على مجموعة (المجاهدين) الذين يقتلون الصّبية بسبب أنَّ الشباب يمارسون عاداتٍ غربية، وكان المجاهدون يطلقون على الصبية تسمية (الإيمو)، ويُسقطون منهم ضحايا كثر، وهذا العقاب بالنسبة للمجاهدين مباح عندما يكون القانون قائماً على رسائل الدين، وهذا ما يجعلهم يطبقون هذه الجرائم بصورةٍ رسميّة، هذا ما أدَّى إلى هروبِ الكثير من الشباب إلى أماكنَ مجهولة، مع استمرار وضع البلد على هذه الوتيرة الساخنة، وهذا الأمر متروك للزمن حتى يتم العثور على الفاعلين الذين قد يكونون مذنبين قليلاً بنظرِ القانون ويتم معاقبتهم بصورة مقبولة ومرضية لهذه الفئة من المجرمين تحت ذريعة غطاءِ الدين المطبق بصورة وحشية، كنت أجوب الشوارع حتى وجدت نفسي أتذكّر اشتياقي لماري، وكان عليَّ الاتصال بها فرفعت سماعة الهاتف أنتظرُ الرد:

- مرحباً ماري أفتقدكِ كثيراً، لما هذا الاختفاء؟
- أهلاً آدم، آسفة جداً، كنت مشغولة مع والدتي لأنَّها مريضة، أفتقدكَ أيضاً.

أخبرتني ماري أنَّ والدتها أصبحت بخير وصحتها في تحسن، وعِندها سألتني:

- هل أبدو لك فتاة تقليدية؟

تبعث بي التساؤل والفزع بهذا السؤال الذي يبدو استنكاريّاً؛ لأنَّها تعرف أنَّ جوابي سيكون نعم، أنتِ مدهشة حدّ اللذة!

- أنتِ امرأة بألفِ رجل، قلتُ لها.
- وراء كل رجل عظيم امرأة، قالتْ بخجلٍ عظيم كأنتَ.
- أجبت: الأنثى مرآةُ الرَجُلِ وتقويمُه.
- النهاياتُ الحقيقة أبطالها رجال يبدو أحدهم غير تقليديّ مثلك.

بعثتْ لي بقولها غرور رجل شرقي، تاركة بي علامات الاستغراب لاستعمالها فنون الإثارة، وقبل أن أجيب كالعادة قاطعتني:

أيامي معكَ مختلفة تماماً عن الأيام الخوالي، كالمفارقة بين الظلمات والنور وهذا ما يجعلني أقع في بئرِك العميقة، فلا تَتجرأْ على تحطيمي، ولا ترجمني، ولا تقطع عني السلام؛ فأكادُ لا أتحمّل فكرة رحيلكَ يوماً ما، ولن أستطيع مقَاومة ابتعادك؛ لأنَّ احتواءكَ لي كبير، وأنا لستُ سوى طفلة تتسلل خلف مظلة الاشتياق في هذهِ الأمطار التي تبدو أنَّها تُروضني لاستقبال هجمة شرسة تدعى(الحُبّ).

في نهاية حديثنا وهي على سماعة الهاتف بدأت أشعر بسعادة حقيقية بسبب تلميحاتها التي قد تكون اقتربتْ كقاب قوسين من اعترافها ونطقها لكلمة أحبكَ، أدركت حينها أنَّها تريد أنْ تعترف من خلال حديثها، قاطعتها قائلاً:

- أريد أن أقول لكِ شيئاً، فبَدتْ أنَّها مرعوبة بهذه اللحظة.

- عمري ست وعشرون سنة ولم أعُد صبيّاً، أريد أن أنجو من هذا المأزق.
- ماذا تقصد؟ قالت متلعثمة.

كنت أريد أن أخبرها أننا نشعر بالحب، هذا الشيء الذي يمكننا تمييزه من بين ألف شخص، ولا شك أنَّ أغلب الأشخاص الذين وقعوا به يلمعون الآن كقطعة ماس ويختلفون عن الجميع كالاختلاف بين المصباح والقمر، وأنَّ من يبتعد عن الحُبّ هذا سوف ينصهر كقطعة الجليد، ومن يسقط في قبضته يربح عالماً ورديا يسوده الخير، كعلاقة الرب ودعاء عباده، والفلاح بالحصاد.

- هُناك مفاجأة لكِ، قلت.
- أخبرني لا أكاد أستطيع الانتظار.
- الأربعاء، الأربعاء سأكون في جامعتكِ، قلت لها: سأخبركِ، أعدكِ بذلك
- أجابت: حسناً، أنتظركَ بفارغ الصبر.

أنهيت الاتِّصال وانصرفت بعدها لرؤية سنان، مكثت طول النهار داخل منزله، كنّا قد تناولنا معاً وجبة الغداء وكانت أوقاتنا مع بعض عبارة عن تساؤلات عن كيفية حل الشكوك حول صالح في هذا المشهد الساخن، رحت أقص على سنان خطورة الشارع الذي يتلوّن بألوان دماء أولاد الوطن التي تتدفق شباباً، كان يشعر بالفظاعة أمامي ويطلق التهم على شخوص ربما هم مسؤولون عن

هـذه الكـوارث لكنَّـي لا أؤمـن بالاحتمـالات فأتـرك الحلقـة الأخيـرة تحـت طاولـة الانتظـار؛ فـكلٌّ مبهـم سـوف يتّضـح أخيـراً وتكتمـل صورتـه، رحنـا نتحـدث مـع بعـض، تتملكنـا الحَيـرةُ ممـا يحـدث، وراح سـنان يخبرنـي أيضـاً عـن شـكوكه عـن فاعـل الخيـر وهـو الخبـر الوحيـد الـذي يحمـل السـعادة والسـلام فقلـت لـه:

- هذا الخبر الوحيد فاكهة جيدة أما البقية فاسد.

فترك الموضوع على جنب وسألني:

- ماري امرأة لطيفة وذكية لِمَ لا تتزوجان؟
- تخيفني حقيقة الاختلاف، قلت.
- ماذا تقصد؟! قال بريبة مذهولاً.
- علـى أحدِنـا أن يتنـازل أمـا أن أكـون مسـيحياً أو تصبـح هي مسلمة.
- هذا الاستنتاج خطر آدم.
- لا بـدَّ أن يتقبّـل أحدنـا حقيقـة الاسـتنتاج هـذا، اختـلاف الاديان بيننا جريمة في نظر المجتمع.
- أجـد مـاري مثقفـة، أخبرّهـا وكُـن متأكـداً سـتتقبّل الأمـر، قال متحدثاً بإطناب عن سهولة الموضوع.

أخبرتـه أنّ الأمـور سَـتكون بخيـر، وخرجـت مـن عنـده متأففـاً وغارقـاً فـي فوضـى الأفـكار التـي تجعلنـي أسـير دون اسـتقامة فـي طريقـي إلـى البيـت، كانـت السَّـاعة عندهـا قاربـت السـابعة ٧:٠٠، وصلـت إلـى شـقتنا وكان عندهـا

والدي في استقبالي يدعوني على العشاء مع معهم، فقلت له إنّني أكلت عند سنان، صعدتُ إلى غرفتي مستلقياً على سريري، أنهيت أكثر من ثلاث ساعات في وضعِ الفرضيات حول كل ما يحدث ...

كانت البناية هادئة وكل الجيران يبدو أنَّهم نائمون الآن، ومن أعماق الشرفة هبَّ هواء بارد في هذا الصمت الرهيب الذي لا يُسمع به سوى طنين بندول السَّاعة في أذني، كان ينبعث من غرفة جارتنا العجوز صوت مواء هرتها المزعج، ويبدو أنّها نسيت أن تطعمها جيداً، عدت أكتب شيئاً في كراس يومياتي وأرتب أحداث الأيام الخوالي، عندها سمعت صوت صراخ امرأة من غرفة الشيخ لطيف وعلا صوت آخر يبدو أنه زوجها لطيف قائلاً:

- تعالي هنا، تعالي

تلاها صمت، ثم ارتفع صوت آخر يصرخ بقوة جعل سكان بنايتنا والجيران يتجمهرون أمام منزلهم، ارتديت ملابسي ونزلت السلم مسرعاً لمعرفة ما يجري، خرجت عندها ورأيت زوجة الشيخ لطيف مازالت تصرخ وهو يقوم بضربها، وإحدى زوجات جارنا الآخر أسمعها تقول له: اتركها، اتركها.. تصيح من خلف بابهم، ومازالت زوجة لطيف تحاول الهروب، ولكن في كل مرة تخرج من عند باب منزلها تنزلق بيدي زوجها وهو يمسكها ويدخلها المنزل مصاحباً ذلك ضرباً مبرحاً، بينما جارتي العجوز

تـردد قائلـة: إنَّ ذلـك فظيـع، وتصـرخ بنـا قائلـة: اتصلـوا بالشـرطة ليجـد أحـدٌ مـا حـلاً لهـذا المعنّـف، وإذا بجارنـا الآخـر يحضـر بسـرعة وبرفقتـه سـيارة الشـرطة، نـزل منهـا شـرطي واحـد أولاً، حينهـا كان لطيـف يهـدد بعـدم الاقتـراب والا لـن ينجـو مـن شـرِّه أحـدٌ تحـتَ صدمتـي وكل الجيـران متسـائلين فيمـا بينهـم، أهـذا هـو فعـلاً الشـيخ لطيـف!

الـذي يتركنـا بصدمـة مـن معرفـة أنَّ رجُـلاً مثاليّـاً هـو عبـارة عـن فقاعـة مـن الكـذب عندمـا أثبـت أنَّـه وحـش يرتـدي غطـاء الديـن ولا يطبـق منـه شـيئاً، عندهـا اقتـرب الشـرطي مـن منزلـه، وأخبـره أنْ يفتـح البـاب، قـام الشـيخ لطيـف بفتـح البـاب محـاولاً أن يكـون هادئـاً أكثـر ممـا يبـدو، فهرعـت زوجتـه تحتمـي بالشـرطي صارخـةً بأنَّـه يعذبهـا كل يـوم ويلبسـها النقـاب قسـراً تحـت التهديـد، وأنَّـه وحـش عنيـف بهيئـة إنسـان، فقـام الشـرطي بإلقـاء القبـض عليـه وأمـره بعـدم التفـوه بـأيّ كلمـة، وأي محاولـة للـكلام سـوف تُسـتخدم ضـدّه فـي المحكمـة، فـكان عليـه الذهـاب لمركـز الشـرطة لتدويـن أقوالـه فلـم ينبـس ببنـت شـفة حينهـا، وذهـب معـه هـو وزوجتـه وهـم يصعـدون سـيارة الشـرطة، فانصرفـوا سـوياً، وانفـض الجمـع...

المكان: جامعة البصرة /كُلية الطب

الأربعاء

استيقظت صباحاً، شارفت السَّاعة على ٨:١٥ وكنت على موعد بماري، وقد كنت متغيباً عن الجامعة لمدة يومي، أخبرت الأصدقاء بأنّني أمرُّ بوعكة صحية، وهذا ما يتيح لي عذراً شرعياً وإن كان نهايته عقابٌ لكن يبدو غير صارم جداً، فلقاء الحبيبة يشفع لي، فأخذت الباص الذي يقودني نحو جامعة البصرة التي تقع في مركز المدينة جنوب العراق، وصلت حينها وكنت أنزل متوقفاً في بوابة الجامعة نحو كلية الطب، علمت حينها بأنَّني أتحمل مسؤولية الخطوات التي تقودني نحوها بدون أخطاء، مررت بوابة الجامعة كأنّني أحد طلابها، اقتربت ولم يعد يفصلني عن ملهمتي سوى مسافة من الأرض المزدحمة بالطلبة وأردد في سري إلى الأمام يا قلبي، فقصيرتي تعلو خشبة ما في أحد زوايا الانتظار، مشتعلة من الداخل ترقّباً، ولا تريد الآن غير أن ترجمها بقبلة، كنت أسارع خطواتي وأبحث عن مواصفاتها بين الوجوه، وإذا بي ألمحها من بعيد فاقتربت منها في مكان يمتلئ بالضجيج، وأصوات صباح الخير، والضحك، كانت حتى كلمة أحبك تسود المكان بالاعترافات الخجولة تملأُ الهواء، وتتطاير في أذني من كلِّ صوب، وتجعلني

أفكر وأطرح سؤالاً واحداً على نفسي: كيف سأشرح كلمة أحبك في هذه الفوضى؟ اقتربت أكثر نحو من ترتدي اللون الأسود الذي يليق بها، لون يجعلني اندهش، قريباً جداً ستلاحظين كائناً لا يستطيع إخراج الكلمات بصورةٍ جيدة، أخذت بعدها أُسارع خطواتي بالوقت الذي أحسست بأنَّها تختنق الآن كأنثى لا تعرف السباحة، وتعلم أنَّ هناك سبّاحاً ماهراً لا يتأخر بإنقاذها، ملتفتة نحوي ومنتبهة لتحركاتي المتخلخلة.

وصلت مقربة منها تبتسم بوجنتين تحمر خجلاً، وقلتُ لها :

- صباح الخير جميلة الصباح.
- صباح النور سفّاح الانتظار، أردفت ضاحكة: كيف دخلت هكذا ألم يوقفك أحدهم؟ لا يسمحون بدخول الغرباء.
- خُلق القانون ليُخترق، انظر كيف تتحدث عن القانون وهي تخالف الزي الجامعي هههه!
- يكفي يا لاذع، هيا نذهب، تلكزني بقوةٍ على ظهري.

دخلنا إلى حديقة الجامعة نتحدَّث، وكان الوقت يسمح لي بأنْ أخبرها عن حادثة البارحة وما حصل مع شيخ لطيف وزوجته وهي تضحك قائلة:

بائسة بائسة هكذا عَلاقة زوجية.

- نعم هذا يلغي احتماليَّة أنْ يكون هو فاعل الخير

هههههه، قلت بثقة.

- ربما، مع ذلك هكذا علاقة لا تمحي النوايا الحسنة، قالت تصدُّ توقعاتي بالواقع.

كنّا نتحدث فيما دخلنا بعدها إلى مكان هادئ نوعاً ما لتتصاعد نبضات القلب شيئاً فشيئاً، لكي يتاح لكلَينا هيكلة اعتراف مؤخر وجوباً، وقد يكون الآن هو الوقت المناسب لطرحه، ولأني لا أحبّ أنْ تكون الاعترافات الصوتيّة هي سيدة الموقف لكونها لا تشرح كمية الشعور الباطني، ولأنَّها لا تعبّر عن الكثير من الشعور الداخلي للطرف الآخر، أخيراً قاطعتني قائلة:

- أنا أمامك الآن، هاتفي مغلق وأذني صاغية، تحتاج فقط أنْ تقتل شفافية الوقت وتختصر الخوف والقلق.

بدت أنها تريد أن تعرف ماذا أحمل من معوقات، ومن اختلاف دينيّ قد يجعل طريقنا الوعر مهدداً بتعثرنا، لكنَّني أريد أنْ أبحر بها ولن أجعل مقولة (تمشي الرياح بما لا تشتهي السفن) قاعدة تنطبق على كلَينا، فأنتِ الشراع وأنا ربَّان هذه الرحلة التي سنتفق على خوض غمارها معاً، فالهواء عالٍ ولا شك أنَّ المخاطر آتية لمجاراتها معاً، وسأفعل المستحيلَ لكي أنالكِ، فلن أرضخ لهذه العثرات ولن أستسلم، وكل ما عليكِ هو أن تكوني معي وتقبليني حبيباً وزوجاً....

كنت أخطط لمفاجئات عدة مع ذلك أخذت شهيقاً زفيراً وأخبرتها قصة قديمة عن مصيبة ذلك الفقير

الذي خطف الأميرة في مصيدته وأوقعها في حبه، وتزوج منها بأعجوبة بعد صراع مع رفض والدها؛ لأنَّ الزوج لا ينتمي لعائلة مالكة أو نبيلة راحت تستمع لي كما يستمع الأطفال لراوي قصصهم لحظة النوم.

- أريد أن نتزوج فأنا أحبك، قلت بجرأة.

راحت تغطي وجهها وتضع يدها على فمها خجلاً، ويداها ترتجفان، مبتلعة أنفاسها التي تتزايد ثم أجابتني:

- كنت أنتظر هذا الاعتراف عشرات الساعات لكنَّني لم أتمكن من البوح بهذه الكلمة قبلك حفاظاً على كرامة النساء، عندما كنت في الشق السيكولوجي من المخاطر التي قد تجرح من فكرة أنْ تكون متعلقاً بامرأة أخرى، وعمّ الصمت!!

- ماذا!! أسمعكِ أكملي.

- أحبكَ وأحب اعترافكَ بي حبيبة منذ اللحظة الأولى التي ضعفت بها أمامك واستقويت بها بك.

كان اعترافها بي يجعلني أشعر باكتمالي وأتخطى الحدود والخطوط الحمراء التي بيننا كاسراً كُل الحواجز، وكان هذا الاعتراف تنبيهاً بحصول أشياء أخرى كما في أصوات الطيور التي تنبؤك أحياناً بقدوم زائر أو خبر مفرح، فعلوُّ أصواتها كأنَّه يقول لي اقترب أكثر فهناك مفاجآت عدة ما دمت وضعت هدية الاعتراف كحلوى أو خاتم من الماس، فقانون ردّ الهداية يشبه كثيراً قانون

الحركة الذي أطلقه نيوتن عندما قال: لكل فعل قوة ردة فعل تساويه بالمقدار وتعاكسه بالاتجاه، فأنتِ كريمة برد الجميل وأنا لا أرفض الهدايا، عندها وضعت عيني في منتصف عينيها أنتظر هديتي المتوقعة وقلت:

- الشامتان أعلى شفتيكِ.
- ما بهم، قالت وهي تدير وجهها خجلاً.
- إنَّها كمصاص الأطفال تدعوني للتقبيل.
- سخيف.. اعقل، قالت وهي تراقب حركة المكان.
- حسناً دعينا نذهب إلى مكان أقل ضجيجاً.

أخذنا نمشي قليلاً في مطبات الجامعة، حينها بدأ الطلبة بالدخول إلى قاعات المحاضرات، وما كان عليَّ أن أقف وأجعل قدومي ينتهي بلقاء لم يدم حتى عشر دقائق، فطلبت منها أن تُفوِّت محاضرتها الأولى من أجلي، أول وآخر مرة فقالت وهي تحدق بوجهي:

- أنت محظوظ.
- كيف؟
- لدي مادة أخلاقيّات الطب (سلوكيّات) يا حبيبي سوف أعوضها لاحقاً.
- إنْ كانت مادة صعبة لا داعي حقاً، سوف نلتقي في وقت آخر.
- لا تبالِ.. سهلة سهلة.

أخذنا بعدها نمشي في زاوية خالية من الطلبة تحتوي على طاولة وثلاثة كراسي، رُبما الكرسي الأخير للشيطان الذي سوف يوسوس في داخلنا ويعطينا أفكار جنونية، فأخذت بنصيحة واحدة وهي فكرة خططت لها وزرعتها لحظة وصولي، حتى جلسنا نحدق في بعضِنا البعض، ولكي أمعن النظر أكثر اقتربت منها وراحت هي تقترب مني أيضاً، كأنَّنا في بالون صغير ضائع في الهواء وتنفخ به الريح التي تدفعني نحوها حتى وصلت مقربة من الدخول في جسدها، متلامساً بها، وكان شعرها المسبل يسقط على عينها، فأبعدته بيدي نحو نهاية أُذنيها، ورمقتني بنظرة تخاطبني، كأنَّها تقول لا تكن جباناً، ها قد خليت الساحة من الحضور ولم يبقَ سوانا، فوصل تلميحها صارخاً، فقلتُ لها:

- شفتاكِ جريمة لم ترتكبها قبلة إلى الآن.
- آن الأوان لارتكابها وتسجيل ذنب يُغتفر في الحُبِّ، قالت ذلك جاعلتني أكثر جسارة.

فلم يردعني إلا عناق طويل قد جعل فمها المنتفخ دافئاً يمتد بقبلة طويلة، أقتحم بها معمورة جسدها، لأحتضن ضلوعها في صدري، بينما هي مدافعة بقوة تدفع أظافرها في صدري لحظة التقبيل متناسيةً العالم وتاركة الواقع، لندخل معاً في لحظة حميميةٍ متمنيين أن يتوقف الزمن عندها ولا ينتهي هذا العناق الطويل، لكني كنت خائفاً أنْ يشاهدنا أحدٌ في موقفنا العنيف، فقُمنا

سريعًا بترميم أنفسنا وفوضى المكان لنبتعد عن مشكلات الشك التي قد تضعنا في موقف حرج، وللتساؤلات عن موقع لدغات القبل وتلك اللحظات الجنونية اللاإرادية، فالجمال في حضرة الجمال اكتساح فقلت لها:

- كيف لعناق مدته خمسٌ وعشرون ثانية أن يفعل كل هذا! وكيف لخمسٍ وعشرين سنة مرّت من حياتي لا أتذكر بها حتى طفولتي!
- أظننا كنا في سفر مدّتُه خمسٌ وعشرون سنة، قالت وهي ترمم أحمر الشفاه ترتجف خجلاً من شراستها معي.
- أحبك كثيراً، أعلنتكِ صديقتي أول مرة وحبيبتي اليوم وزوجتي غداً.
- سأنجب لكَ قبيلة من الأولاد تشبهك تماماً، قالت وهي مليئة بالألق.
- أحبكِ يا أميرتي وأشكر الرب لوهبكِ إياي دائماً وأبداً.
- أحبكَ وأنتَ بهذه النبرة الخشنة وبحنانك الأبويّ.

كان هذا اليوم بالنسبة لها عيد ميلاد من نوع آخر في السنة نفسها، بينما راحت تردد سأطلب أمنيتي، رافعة رأسها الى السماء وتغلق عينيها وكأنَّها تريد تسجيل شريط صوتي، ثم أنزلت يديها ونظرت في وجهي بقلق

وقالت:

«آدم كنت أخاف أن يسرقني أحد لا أحبّه من بيت أبي ليأخذ مدللته بعيداً، لكني الآن سأقول لأبي هناك أب آخر سوف يأخذني بأمان في بيت آمنٍ لرجل يتحمل غطرستي وجنوني وسيكون سنداً لي، سأخبر أمي أن ابنتكِ الشقية وقعت في فخ لطيف لرجل يحترم عقلي، ويحارب أعدائي، رجل يتأخر صباحاً بسبب قبلة صباحية، رجل يشبه حنان أبي، رجل لا يخلف مواعيدي، ولا ينسى ميلادي، ويحارب كوابيسي».

- أحبك يا آدم.

- أحبكِ يا سيدتي ومولاتي.

عندها تركتها تذهب لإكمال يومها الدراسي، وعدت إلى البيت منتصراً بيوم سعيد، أشعر به كأنَّما أطفال يركضون فرحاً في قلبي، وعادت الموسيقى تفور في شراييني حاملة الدم الذي يحمل سمفونية راقصة تجعل ابتسامتي تطول في وجنتي، وتجعل ذاك القميص رديء الجودة يتألق تماماً كمتسوِّلٍ التقط صورة مع أنجلينا جولي فهو سعيد الآن، مع بنطالي الذي يخلو من الدنانير لكنه سعيد أيضاً، ويحتفل بزيارته أمام بريق ماري التي كان يحلم بها آدم، وأن لا يكون بخيلاً فهنا سيدة المكان والزمان التي تحتاج المال والبنين، وكل ما في الأرض من حلال ينفق من أجلها، فهذا آدم كفيل بأن يكون ذا نصيب بها، وقد يكون فارغاً تماماً هذا الجيب من مبلغ شراء

مـوس حلاقـة لكنَّـه فـرح ويرقـص مـع خطـوات آدم حافـي القدميـن والمـال وغنـي بهـا.

كنـت عائـداً إلـى غرفتـي الهادئـة لكـي أدوِّن يومـي السـعيد هذا في كراس اليوميات كانت عندها السَّـاعة قاربت ١٢:٠٠ ظهـراً، نزلـت أتنـاول وجبـة الغـداء مـع عائلتـي فـازدردت كل الصحـون أمـام تعجـب عائلتـي بهـذه النفـس المفتوحـة غيـر الاعتياديـة، محدّقيـن بـي لكنهـم شـعروا براحـةٍ وهـم يَرونـي اليـوم بعافيـة جيـدة تثيـر دهشـتهم.

دخلـتُ سـريعاً إلـى الحمـام، أسـكب المـاء الدافـئ علـى جسـدي، ليشـعرني بملمـس وقبـلات مـاري، انتهيـت ولبسـت سـروالاً وقميصـاً، وخرجـت أسـفل بنايتنـا ألعـب دور المحقـق الـذي يستشـعر بحركـة الجميـع، أراقـب المشـهد المشـحون فـي البـلاد ومدينتـي خاصـة، فأخـذت ألتقـط علبـة السـجائر مـن سـروالي وكان فارغـاً، فسـرت بعيـداً أبحـث عـن أحـد المحـال لبيـع السـجائر فلـم أجـد أحـداً، فابتعـدت عـن حيّنـا، ورحـت أبحـث فـي داخـل الشـوارع والأزقـة التـي بـدت مقفـرّة تمامـاً فـي هـذا الوقـت، فالجميـع الآن إمّـا يتنـاول وجبـة الغـذاء أو نائـم، عندهـا لمحـت شـيئاً غريبـاً! هنـاك شـاب وسـيم يبـدو مـن بعيـد قـد يبلـغ مـن العمـر ١٧ سـنة يقـف مقربـة مـن بيتـه، عندهـا بـدأ شـخص طويـل وضخـم للغايـة يقتـرب مـن الشـاب، ينـزل مـن سـيارة نـوع (كابـرس) سـوداء تحمـل أربعـة أشـخاص فاقتربـت منهـم بينمـا يقتـرب الضخـم مـن الشـاب هنـاك رجـل آخـر يجلـس مقدمـة السـيارة يصـرخ

بـه قائـلاً:

- اجلبه بسرعة أيها الغبي.

فأخـذ الضخـمُ يجـرُّ الطفـل مـع صراخـه نحـو السـيارة، اتركنـي اتركنـي، وهـو يسـتنجد دون جـدوى فركضـت نحـوه لمسـاعدته، وعندمـا وصلـت كان هنـاك شـخصان اثنـان يجلسـان فـي الكراسـي الخلفيـة للسـيارة وقـد سـحبا الطفـل داخلهـا، فارتميـت فـي نهايـة السـيارة أحـاول الإسـراع لإنقـاذ الفتـى لكنّـي وصلـت متأخـراً، أقـف أمـام يـد تحمـل مسدسـاً قـد وجِّـه نحـوي مـن مقدمـة السـيارة وهـي تتحـرك، فتراجعـت منصدمـاً بـأن المدعـو (أبـو تـراب) هـو مـن كاد يقتلنـي، أخذت أتراجـع حتـى سـقطت فـي بالوعـة القـذارة وأنـا أصـرخ:

- اللعنة، اللعنة، أنا لكم أيها المجرمون..

فذهبـت إلـى مركـز الشـرطة لأشـهد بمـا حـدث الآن، كان المركـز يقـع بالقـربِ مـن الحادثـة

دخلـت مركـز الشـرطة وعندهـا كان هُنـاك ضابطـا تحقيـق، الضابـط الأول سـألني: مـا هـي شـكوتك؟ وهـو يتحـدَّث يديـر وجهـه وكأنَّـه لا يعيـر أهميـة، ليخبـر الشـرطي أن يجلـب لـه الشـاي، ثـم عـاد رافعـاً رأسـه نحـوي وقـال: نعـم أكمـل، عندهـا أخبرتـه بمـا حـدث.

فقـال: إنّ هـذا موضـوع خطـر، وإنَّ الجانـي أخطـر منـه، وبأنِّـي لا أملـك دليـلاً ملموسـاً وأنَّ شـهادتي غيـر كافيـة، عندهـا قفـز الضابـط الآخـر الـذي كان يبـدو مهتمـاً بالموضـوع وبـه مـن الشـهامة مـا تجعلنـي أشـعر أنَّ هنـاك مـن

بالقانون يحمل على عاتقه واجبات خدمة الوطن وقسم اليمين عند التخرج، فقال لي:

- هل تعرفه جيدًا هذا المُلقب (أبو تراب)؟
- ليس كثيراً، لكنَّه مجرم وقد شاهدت ما حدث بأمِّ عيني.
- لا تقلق، اترك الموضوع لي، قال يبعث بي أُمنيات أخذ حق الشاب.

عندها عدتُ إلى البيت وفي طريقي وجدت أهلَ الشاب وأخبرتهم بما حدث وقد كانوا مفزوعين، راحت والدته تصرخ وازداد نشيجها مع ابنتها الصغيرة في عويلٍ مستمر، ووالده الذي يُخرج زفرات الألم والحسرة، كنتُ قد طمأنتهم بأنَّ ولدهم سيعود بخير وهذا ما أخبرني به الضابط في المركز، عندها ركض أهل الشاب نحو المركز وانصرفت.

كانت الساعة عندها قاربت على الثامنة مساءً، بدا الظلام حالكاً، والنجوم صفراء باهتة يبدو أنَّها حزينة الآن على ما يحدث من ظلم، حلت غريبة تبدو لأول مرة غير لامعة! ربما لأنَّها لا تظهر في أحلى حلة عندما يتشابك البشر فيما بينهم، عندما تكون على أجسادهم ندوب، أمشي ومازالت نظرات ذلك الأب السارح بحزنه الهدّام في عيني ورأسي الذي مازال يخنقه صراخ تلك الأم على ولدها المفقود أو المتوفي الآن، حقاً لا أحد يعلم.

كانت المحال وقتها مفتوحة، فاشتريت علبتَي سجائر، فأخذت أدخن كثيراً وأنا أمشي عائداً إلى البيت، وصلت حينها بنايتنا وصعدت السلَّم، وجدت أمي مرعوبة وعائلتي خائفة فحكيت لهم ما حدث وأخبرتهم أنني تأخرت بسبب المدعو (أبي تراب)، وأنَّ الأخير هو المسؤول عن قتل الشباب، وبدوا أهلي خائفين، حينها حذروني بخطورة الموقف وأنْ لا أتدخل بالموضوع نهائياً، وإنْ رأيت هذا المجرم ثانية أبتعد عنه ما دمت أنني أخبرت الشرطة، وعليّ أن أتركهم يقومون بعملهم دون تدخلي؛ لكيلا أفقد حياتي.

فوافقت لتهدئة الموقف، وصعدت إلى غرفتي، استلقيت على سريري وأنا أدخن سيجارة بعد الأخرى، أحاول أنْ أجد حلولاً لزج هؤلاء المجرمين في السجن، بقيت أفكر وأدوّن ما جرى كلياً هذه الفترة من أحداث يومية إلى داخل كراسة كبيرة لاستيعاب كل الأحداث، بعدما انتهيت كانت الساعة قد شارفت على ١٢:٢٠ اقتربت من شرفتي ونظرت عندها حيث لمحت (صالح)، وهو يتحرّك متخفّياً ويمسك فوقَ رأسه شيئاً ما كأنَّها جثة مغطاة، يلتفت يميناً وشمالاً مرتبكاً، وهو يخطو خطواته بخفّة على أطراف أصابعه، فارتديت بيجامتي ونزلت السلم لأتعقبه، وهذه المرة لن أرحمه لطالما كانت شكوكي نحوه غير مريحة وأردد بين نفسي: سأقتله بفعلته هذه.

أخذت الطريق أمشي خلفه دون أن أجعله يُلاحظني بخطوات متراجعة، وأختبئُ كلّما أدار وجهه إلى خلف،

إلى أن اقترب من بيت يبدو أنَّه مهجور، وأخذ يُنزِل ما يحمله من أعلى رأسه ويلتقط شيئاً صغيراً كأنَّه كيس ملابس، ويضعه في عتبة الباب ويمضي ويبعث بي علاماتِ الاستفهام، عندها تركت ما وضعه في عتبة الباب، واستمريت باللحاقِ به، وكالعادة يقترب من البيوت نفسها التي بدت أنَّها منكوبة ومهدّمة، يضع ما تبقى منها ويمضي إلى أن انتهى، قام بلفّ قطعة القماش بيده وأدار وجهه، ودون انتباه مني قد لاحظني، فراح يهرب مهرولاً فتركته يذهب، واقتربت من عتبة الباب الأخير؛ لأرى ماذا وضع وإذا بها سلّة صغيرة ملفوفة بالملابس وبداخلها بعض الطعام والقليل من النقود! تركني في صدمة موقفي وفي شكوكي السخيفة والباطلة مذهولاً، فعُدت وتتبعت نفس البيوت التي وضع حاجاته عندها، وجدتها أيضاً تحتوي الطعام والنقود، وهذا ما دفع بي الاستهجانَ وقتلَ كلِّ التهم التي أطلقتها عليه، ليرميني في موقفِ الاعتذار عندما أراه وآخذه في الأحضان المرة القادمة، فعُدت إلى البيت وفي أعماقي وعقلي سؤال واحد: كيف لقوّاد أن يكون بهذهِ الإنسانية والرحمة؟!

جلست قليلاً على سريري واحتضنت وسادتي وبكيت!! لا أعلم حينها سبب البكاء لكني تذكرت حنان والدتي وتربيتها لي، كنت أعمل مقارنة بيننا وكم كانت نشأتي وطفولتي لا تختلف كثيراً عن تربية صالح سوى أنَّه اختار أن يكون قوّاداً.

استيقظت صباحاً عند الساعة ٧:٤٥ بعدما كان يوم أمس متعباً؛ لألتحق بجامعتي وقد كان قضى على غيابي يومان، لأعود إلى مراجعة دروسي، فالتقيت بِسنان وقصصت له ما حدث معي هذهِ الأيام، وتشاورنا مع بعض الأصدقاء، وأخذت الحصص التي سبقتني، وانتهى الدوام بهذا الروتين، وفي طريق عودتي كنت لا أستطيع الانتظار حتى أقوم بالاتِّصال بماري وأخبرها بما حدث، فَاتَّصلت بها وعندها رفعتْ سماعة الهاتف قائلة:

- كنت بانتظاركَ، قد اشتقت لك.
- وأنا أيضاً يا حبيبتي حتماً، أريد أن أخبركِ بشيءٍ ما.
- حقاً حبيبي، وأنا لديَّ أمر آخر أخبركَ به.
- حقاً؟ إذاً تطلَّبَ الأمر أنْ نلتقي، ما رأيكِ بمشاهدةِ فيلمكِ المفضّل الذي أخبرتني به وقد أجلّناه كثيراً، وبعدها نتحدث؟
- فكرة رائعة، أيّ وقت حبيبي؟
- حسناً، السَّاعة السابعة مساءً.

اتفقنا مع بعض أن نلتقي في المهرجان السينمائي المتنقل في أرجاء مدينة البصرة والذي يعرض مختارات من الأفلام المحلية والعالمية، وقد أقنعت ماري أن نطلب من مؤسسي المهرجان عرض فيلمنا المفضل، وراحت توافق يغمرها الفرح على هذه الفكرة، رجعت بعدها إلى البيت، وقد أكلت وجبة الغداء متأخرة، ثم قمت بارتداء

بدلتي الرسمية التي سوف أظهر بها أنيقاً أمامها في ذلك المهرجان، فانطلقت قبل الموعد وكنت قد وصلت وسط هذا الحشد من المشاهدين، بعد دقائق معدودة كانت ماري تصل وهي تراقب المكان بانتظاري مشعة كما عهدتها بفستانها الذي تبدو به غضّة ومشرقة والذي يدفع بي الغيرة، دخلنا لمشاهدة فيلمها المميز (مشية للذكرى) بعد أن طلبت من القائمين عرض فيلمنا المفضّل ولم يقتنعوا في البداية؛ لكون الوقت المحدد مقسم على عدد الأفلام على قائمتهم، ولكن بعد إلحاحي المتواصل تمكّنت بحجةٍ ما من إقناع شخصٍ مسؤول رفيع من مؤسسي المهرجان، وبدا معجباً بالاقتراح لكون الفيلم الذي اخترناه من أفلامه المفضلة أيضاً، فعدت مبتهجاً يغمرني الفرح نحو كرسي جلوسي المراصف لكرسي ماري، وبعد نصف ساعة من عرض بعض الأفلام المحلية القصيرة التي كانت معظمها رسائل لنبذ الإرهاب والطائفية والمخدِّرات والسلاح المنفلت، كانت حينها ماري متحمّسة حتى موعد عرض فيلمنا، بدا المشاهدون مستمتعين باقتراحنا، كانت مشاهد الفيلم تتيح للكل الإصغاء التام، كان كل مشهد يُحرك المشاعر، أما ماري كانت تتمسك بأزرار القميص وتضع رأسها على كتفي، عشنا مع بعض أحداث الرومانسية في هذا الفيلم إلى أنْ أُسدل الستار عن نهايته وانتهى، ثم خرجنا نتمشى حتى وصلنا لمحلٍ لبيع المثلجات، نأكل ونضحك معاً بنشاط

الشباب إلى أنّ سألتها في لحظة خلو فيما بيننا:

- ما جديدكِ؟ ما الذي يشغل تفكيركِ.
- أخبرني أنتَ أولاً، متشوقة لمغامراتكَ.

رحت أخبرها عن حادثة الشاب الذي اختُطِف، ومَن كان المسؤول عن قتل الشباب وترويعهم هو (أبو تراب)، راحت مفزوعة وهي تتنهد جاعلةً تلك الخدود الناتئة تبرز كثيراً عندما نفخت حسراتها في وجهي، بدت أنَّها تبدي الكثير من الحقد والكراهية لمجموعة (أبي تراب).

- جاء دورك يا حلوتي، ماذا يشغلك؟
- صديقتي في مأزق، هناك من يساومها على جسدها.
- ماذا؟ أيُّ خسيس هذا!!
- دكتور يشغل منصباً في الجامعة، من تتوقع؟
- من يكون؟
- دكتور سعد.
- دكتور سعد منظّم معرض الكتب الذي حضرناه في جامعة البصرة؟ حقاً!
- نعم، رجل سيء الخلق رغم مكانته الاجتماعية إلا أنَّه يساوم صديقتي على عَلاقة غير شرعيّة من أجل تعديل درجاتها الدراسية.
- وهل قبلت بذلك؟
- للأسف نعم، إنَّها متزوجة وخضعت له أول مرة لكنَّه

لم يمتنع واستمر باستغلالها.

- كارثة، كارثة، قلت.
- تريد التخلص من ذلك بأيّ ثمن؛ لأنَّ علاقتها مع زوجها بدأتْ تتدهور بسبب الشك.
- عليها إدانته بالشكوى أمام رئاسة الجامعة لكي يتمّ فصله.
- قد تقع في مشكلة، لن يُصدقها أحد، قالت بلوعة.
- رُبما، حقاً أكثر الوجوه مظاهر، لم يخطأ صالح بقوله.
- ما دخل صالح بالموضوع؟ قالتْ.
- قد تكون مهنته منبوذة لكنَّه إنسان حقيقي.
- لم أفهم ما تقصد؟
- لن تصدقي إن أخبرتك أنَّ من يساعد الناس هو صالح واتضح أنَّه (فاعل الخير).

انصدمت ماري من كلامي ولم تصدق أولاً، وهذا بطبيعة الحال متوقع فكيف لصاحب مهنة منبوذة أن يكون إنساناً معتدلاً بنواياه، وكيف لرجل دين مثل لطيف أن يكون له وجه آخر ومن الأشخاص الذي بان زيف صورته الخادعة أمام الملأ وقد ظهرت حقيقته المشؤومة.

طال الحديث بيننا بهذه المفاجآت ورحت أخبرها أنَّ هناك العديد من الحلول للإيقاع بدكتور سعد؛ ليتمّ عزله عن منصبه بجريمته هذه، وبدتْ أنَّها اقتنعت وراحتْ

تتصل بصديقتها لطمأنتها، وتخبرها بأنَّها ستتحمل مكابدات كلّ ما يحدث وأنَّها ستصلح الأمر، إلى أن انتهت من صديقتها وعدنا إلى منازلنا..

كان نهار اليوم غائماً جزئيّاً، هادئا، خرجت أطلق زفرات ضجر روتيني الممل في البيت، منطلقاً في أزقة الحي، كنت حينها وصلت نهاية الطريق، كان الشارع مُزدحماً بالمارة، حيث الأطفال يحرّكون نوم الأرض، وهم يتنافسون على امتلاك تلك الكُرة المتكونة من مجموعة ملابس، أحاكها صاحب الفكرة للمرح وهم يلعبون ويطلقون عليها كرة قدم، تركت سعادتهم المنتشية بالشباب وعبرت شارعهم نحو الشارع الآخر حيث لم تنتهِ تلك الأم من البكاء، ومازال ولدها مجهول الجثة بعد أن قيل لها إنَّه قُتِل حرقاً، تصرخ في أذني وتعصر الحزن داخلها، كمن يرتوي بالماء لحظة العطش، كنت أستشعر قسوة الزمن معها، وأتخيّل موقفها الجهنمي في غابة استحلّها البشر بعد قتل جميع الحيوانات، وانقرضت بها الإنسانية، زدت خطواتي بعد أنْ وصلت مقهى حيّنا الشعبي الذي لا أكلُّ ولا أملُّ ارتياده، هدوء هذه المرة دون ثرثرة الرباعي بالعادة، أجلس الآن مع العم فتّاح هذا الشخص الكهل، وهو صديق لدود لجمرة صاحب المقهى ومن أصدقائه القدامى، كان الشخص الوحيد الذي أستمتع بالحديث معه لكونه يتقبّل كلامي على محمل الجد والإصغاء التام، على الرغم من كونه ذا كلمة حكيمة ورأيٍّ لا يقبل التشكيك به وتحليله.

- المكان استعاد عافيته أخيراً، قال.
- بالتأكيد إذا كان يخلو من أشخاص كأبي تراب.
- سمعت أنه مُعتقل بسبب ملابسات لقتل مجموعة من الشباب، قال.
- يا اللّه ظهر الحق، اللعنة على أمثاله، قلت لأستكشف ما بحوزته.
- له علاقة بالدولة سوف يخرج بعد أيام صدقني؛ بحكم يبقى المتّهم بريئاً حتى تثبت إدانته.
- كم خيطاً وكم دليلاً يحتاجون لإدانته؟ هراء، هراء، قلت حانقاً.
- اهدأ أرجوك، جرأتك هذهِ ستكلّفك الكثير، دعكَ منه، قال ينبهني.

لا أحتاج أن أكون جباناً كي لا أقتل، يكفي أن لا أسكت وأن أشجّع الجميع على نقد هذه الفئة التي ستقتلنا اليوم أو غداً ولاحقاً أطفالنا.

- توجد خطوط لا يجب تخطيها، ليس خوفاً، لكن كي لا نفقد أرواحنا على الأقل من أجل أحبتنا، قال.
- أحياناً بعض الخطوط الحمراء يجب أن نجتازها سحقاً بالإقدام، عذراً جدي.

أحجم على الرد ولم ينبس ببنت شفة بعدها، وعمّ الصمت، ثم رفع نفسه استأذن منصرفاً، وتركنا الأمور

علـى عواهنهـا.

فـي هـذه الأثنـاء كانـت المفاجئـة تعصـف بـي كمـن أطلـق رصاصـة باتجاهـي، ولـن أسـتطيع التفكيـر طويـلاً حـول مـاذا أفعـل وهـي مسـرعة بانطلاقهـا نحـوي فتخاذلـت أغمغـم مـا بيـن نفسـي والحائـط، دخـل هشـام (أبـو تـراب) محافظـاً علـى مئـزره كمـن يبعـث فـي الجميـع أنَّـه انتصـر ولا يجـرؤُ أحـد علـى منازلتـه، جلـس وهـو يطلـق حـركات بيـده وبسـلوك سـمح لـي بازدرائـه، ألقـى التحيـة علـى الـكل، أجـاب الجميـع إلا أنـا فَرحـت أرسـل لـه نظـرات تحمـل حنقـاً للانتقـام، ولـم يتأخـر كثيـراً حتـى راح يدافـع عـن الشـبهات التـي لاحـت صورتـه بعـد أن سـأله أحـد الجالسـين:

- سمعنا أنك متهم بالقتل أستاذ!
- تهمـة باطلـة لكنَّهـا مشـرّفة عندمـا يتعلـق الأمـر بسـحق رؤوس الخارجين عن الدين.

جـواب جعلنـي أشـتد غضبـاً، قفـزت واقفـاً وسـألته أمـام الموجوديـن:

- لماذا الشباب، أتقليد المظهر جريمة ثمنها القتل؟
- هؤلاء أتباع الشيطان يا غافل، قال.
- هـل يعنـي قـص الشـعر بتسـريحة معينـة، أو وضـع قـلادة، أو سـوار معيـن، أو ارتـداء ثيـاب ذات رسـومات الجماجـم يعني أننا من أتباع الشيطان؟
- اليـوم هـذه الأشـياء وسـلوكيات الغـرب، وغـداً سـنأكل

الخنازير، لا بدَّ من إيقاف المحرّمات، قال بخبث.

- هذه حرية شخصية والدستور العراقي كفل الحريات الشخصية، نسيت هذا؟
- الدين يكفل أيضاً إيقاف هذه التُرهات.
- وأنتَ لست أحدهم لا رجل دين ولا رجل قانون، قلت حانقاً.
- يبدو أنَّ الثقافة الغربية قتلت ثقافتكَ الأصلية، نهض يضربُ كرسيه الذي يجلس عليه وخرج.

هممتُ بالخروج من بعده أمام تحذيرات الجميع وهم يرددون: بماذا ورطت نفسكَ!!

تركت هذيان المكان وخرجت عائداً الى شقتي.

الفصل الخامس

في أيام لم تختلف كثيراً، اليوم كالأمس وغداً يبدو كاليوم، انفجارات وضحايا بسبب الإرهاب هنا وهناك في أرجاء البلاد والوضع مضطرب، أحزاب وميليشيات، سلاح منفلت في الشوارع أكثر عدداً من سلاح الدولة من مؤسسات (جيش وشرطة)، وهذا ما جلبته السنوات الست الأخيرة من فوضى جراء الطائفية والإرهاب، وهذا ما يحتّم على الكثير أنّ لا يخرج دون أن يحمل وسيلة ما للدفاع عن نفسه، فقمت بشراء سكّين جيب حاد، أتمنى عدم استعمالها يوماً.

كنت أجلس أدخن سيجارة جنب الرصيف، وبعد الانتهاء انتقلت إلى ركن الشارع لأني شعرت بالجوع، انتهيت من سد جوعي حتى بدأت مداخلاتي وسط نقاش وثرثرة مع بائع المأكولات واثنين من الزبائن حول الوضع المشحون، حينها كنت قد لمحت (لطيف) قد مرَّ أمامنا، وأنَّه خرج من السجن بكفالة بعد التعهد لزوجته العدول عن أخطائه وتصحيحها ليعودا معاً لمنزلهم، فيما نحن وأصدقاؤه والجيران في حيّنا الشعبي ننقل له نظرات حانقة تحمل سخريةً مُرة، فأخذت ترسل في رؤيته موت تلك الصورة المحنكة والمعتادة وانبثاق واحدة أخرى مخزية تجعله يخضع للاختباء وتعديل المسار، وما كان عليه إلا إعادة

ترميم سلوكياته وإعادة صياغة شخصية قد رسمها الناس سابقاً، التي يحتاج بها الكثير من الوقت لإعادة تلك الثقة في ذاكرتهم ومسح صورته الأخيرة.

في اليوم التالي سمعت خبر وفاة العجوز جارتي بسكتةٍ قلبية، ولم يبقَ سوى مواء هرّتها يعزف لحناً حزيناً كأنها تبكي، أمّا صالح، آسف جداً أقصد الإنسان صالح؛ لأن مهنته الأخيرة اتضحت لي مؤلمة عند المناداة، يستحقها آخرون كانوا قد اغتصبوا الوطن ووزّعوا الغنائم والمُقتنيات لبائعي الشرف.

وجدت صالحاً منهاراً، احتضنته بشدة.

حاولتُ البكاء لكنني فشلت...

سمعت أنها ماتت، قال:

- من تقصد؟
- زوجة فلان الفلاني.
- ما علاقتكَ بها؟

رفع يده وقال: أتصور أنك تتذكر مشهد هروبي الأخير عندما التقيت بكَ قبل فترة عندما كنت أركض ويلحق بي أفراد الشرطة، حينها كنت أهرب من منزل سعاد حبيبتي التي وجِدت مقتولة أمام بيتها، وكنت آخر الواصلين، آخر شخص حمل القتيلة عند قدوم الشرطة، للأسف قتلها هكذا ببساطة!! ووقع الشك نحوي.

- نعم أتذكر، من قتلها!؟

- زوجها، كان كثير الشك بسبب جمالها.
- أيام تعيسة، آسف لخسارتك. قلت أُواسيه.
- لا يهم، روحي فراغ يا صديقي.

هدوء جزئيّ، لا أخبار تذكر إلى الساعة الخامسة عصراً، اتصلت بي ماري تضحك يملؤها السرور، وتصرخ لقد نجحتْ خطتنا آدم، أخبرتني بأنَّه قد تم الإيقاع بدكتور سعد، وذلك بعدَ أن تمّ ضبطه في قضية أخلاقية تحت «مساومة امرأة مُستغلاً مكانته الاجتماعية ونفوذه الأكاديمي في أغراض غير أخلاقية» قالت ماري تشعر بالفرح، الفتاة التي اتفقت معها يا حبيبي (لعبتها صح).

- إذًا فضيحته خبر حصري للجرائد، قلت ضاحكاً.
- نعم، بعثت لي صديقتي نسخة منها. قامت ماري بإرسال ورقة فيها كتاب إدانته كتب في مستهل عنوانها (استغلال الوظيفة لأغراض جنسية، دكتور يشغل منصباً في الجامعة، ويستغل عمله في طلب تكوين علاقات غير شرعية مع بعض الطالبات، وتحديداً مع اللاتي لديهن ارتباط معه من أجل دراستهن الجامعية، وقد تم الإيقاع به من خلال طالبة تبلغ من العمر «٣٠عاماً» كانت تبحث عن واسطة من أجل بعض الدرجات للنجاح، وبعد أن تواصلت معه أخذ يسألها عن حياتها الخاصة، موضحاً لها أنَّ موضوعها بسيط

إلا أنَّها يجب أن تخرج معه، مؤكداً لها بأنَّه يتعامل مع أحد الفنادق وسبق أن خرج مع طالبات غيرها، فما كان من الطالبة إلا أن لجأت لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحدثتهم بأمر هذا الدكتور، فطلبت الهيئة بالاتفاقِ مع عناصر من استخبارات البصرة من الفتاة التواصل معه وذلك على مسمعٍ منهم وبوجود ولي أمرها، وتم ضبطه بشارع العشّار وسط البصرة أثناء حضوره للقاء الفتاة واصطحابها إلى الفندق، وتم تسليمه لشرطة البصرة من أجل التحقيق معه وإدانته بجرمه، وتمت الموافقة بفصله عن الخدمة بإجماع الكُل...

- خبر لذيذ حبيبتي.
- عبرة دسمة لكلّ أشباهه، لينقع شهادته في ماء مالح.
- الشهادة لا تصنع منا شخصاً آخرَ، بل تجلب وظيفة فقط، يأكل نفسها أمثاله قلت.

انتهى الاتصال بعد اتفاقنا أن نلتقي على الغداء بعد الغد..

الساعة الآن: 12:38 ظهراً (مطعم العزائم)

أجلس اليوم إلى جوارِكِ عزيزتي ماري، أبوح لكِ بمأساة القلق الذي يراودني، قلق أريده أنْ ينتهي بالتحامنا بسرعة خوفاً من فتنة ما تجعلني أندب أحلامي على حطامها.

- ماذا أطلب لك يا مستبدة؟ قلت.
- تبدو جائعاً.
- لست جائعاً لكن وجهكِ يساعد في فتح الشهية.
- لا أشتهي يا آدم، أكلت قبل قليل، استيقظت متأخرة، قالت وهي تتنهد جاعلة علامات التعجب تظهر على ملامحي!!
- هل هناك خطب ما؟! قلت لها بعد أن لمحت شيئاً من التعقيد في حركات يدها.
- والدتي، ثم بكت!
- ماذا يحدث؟ تحدثي أرجوكِ؟
- إنَّها أمي، عويل، جعلَ كحل العيون يجري كنهر أسود!
- توقفي حبيبتي أرجوكِ، أنا معكِ.
- حبيبي لا أظنهم سيوافقون، مع بكاء مستمر...
- باللّه عليكِ أخبريني بهدوء، لا أفهم شيئاً وسطَ هذا الرهط من الناس!
- يقولون: إنني لا أستطيع الزواج في هذهِ الفترة ولن

أستطيع أن أُوافق بين الزواج والدراسة، إنهم غير مقتنعين أبداً.

- سبب الرفض الأول كوني مسلماً؟ قلت فيما هذا الشك كان ينتابني مُنذ البداية.
- يبدو كذلك، قالتْ وازداد نشيجها والنظرات حولنا من كل جانب.

في هذه اللحظة توجب عليَّ أن أكون رجلها الأول، متمسكاً بالأمل والمحاولة بعد أن توسّلتها أن تمسح عيونها ونأكل معاً، ولم تكن ستوافق إلا بعد إلحاحي المتواصل وطمأنتي لها بأنَّ والدتي ستطرق باب منزلها لخطبتها وسيوافق الجميع وكان هذا الوعد كافياً لترضخ لمطالبي ولتأكل من يدي وتطلق نحوي ابتسامة زائفة فقط لمجاراتي، كنت حينها أتوعد بأنَّ الأمور ستكون بخير وهذا الإحساس قد لا يبدو غريباً في التجربة فلن يخذلني، كانت حينها تضحك من قلبها منذ جلسنا هنا بعد أنْ قلت لها: لنؤجل البكاء إلى توقيت آخر، وبأن بعد ثلاثة أشهر من الآن سيصادف حينها يوم الجمعة وسنكون على موعد عظيم ولحظات رعب لعلّها تنتهي بأصابع تحمل خاتماً تاريخياً حصيلته نهاية أبدية لا يُخلع بعدها إلا عند مفارقتنا الحياة.

انتهت وجبة الظهيرة، وبدا كلانا أفضل حالاً، وكان علينا العودة إلى بيوتنا مع شعور لا أستطيع أن أصفه إلا

بالتعب الذي لم أتمكن بالبوح به أمامها، شعور بالانكسارِ الذي يجعلني أتجرع مرارة هذا اللقاء الذي يبقيني على أمل واحد معلق بطرف خيط قد ينجيني من الوقوع في وادٍ عميق جداً.

استمرت لقاءاتنا الافتراضية بين فترات وأخرى، تعمقت علاقتنا وأصبحنا أقرب ما يكون، وكُل الطرقِ مرسومة على ورقة وبدقّة مَسطرة وقلم مهيّئة لنا الزواج، ولا توجد احتمالية الأخطاء أبداً كان كُل شيءٍ يقول لي: تعال ما هو إلا خاتم وعهد وشروط بسيطة بينكما، كُل شيء يقول تعال؛ لتكمل ديانتين، وتجمع بائسين، يقف بينهما اختلاف سخيف بالنسبة لهم وكارثي للمستمعين، كان كل شيء يقول هناك طفل يناديك أبي تحمله والدته لتضعه في أحضانك، وتشعر في تلك اللحظة أنَّها تحترق غيرتها من طفلها الذي يسرق معزتها ويسرق المداعبة بدلاً منها لبعض الوقت، في تلك اللحظات التي أرسمها في سوح خيالي، راسماً وسادة الغرفة متناثرة بسبب عراك لطيف بيني وبينها، نُطلق العنان لأوقات جميلة قد يكون هاتفي حينها ممتلئاً بمقاطع فيديو تحتوي الكثير من صوتها وهي تأكل، تفرح، تنظف، تطبخ، تصرخ بصوتِها في كل مكان، حينما أنتظر اتصالها مطمئنة عَليَّ في كل لحظة، كنت أتصور هكذا سينتهي الحال وهذا الانتظار جاءني باتصال آخر الآن كنت أظنه منها حتى اتضح أنه صوت والدتها..

الحادي عشر من مايو الجمعة /2012

في صبيحة اليوم استفقت على شعاع حار غمر سريري، لفحني في منتصف وجهي كانت الساعة تشير إلى العاشرة، وكان عليَّ النهوض للاستحمام وارتداء بدلتي الجديدة خلال خمس دقائق لأنَّ صوت والدتي نبهني بأن صديقي سنان قد جاء وأصبح في الأسفل بانتظاري، فانتهيت من ترتيب مظهري ونزلت لاستقبال سنان، وجدت أمي متهيئة للذهاب تقف في حافة باب شقتنا، نظرت لي بألفة وقالت:

- وجبة الإفطار جاهزة من (خبز، زبدة، بعض السوائل..) في المطبخ، تناول إفطارك مع سنان بينما أعود.

خرجت والدتي صباح هذا اليوم، من أجل أمر جدير بالاحترام والفرح، وهو ما يخلق لي شعوراً مزعجاً وقلقاً يفصلني عن الآخرين في نفس الوقت، وينتشلني من سماع شتى عذوبة كلماتِ صديقي سنان، الذي يحاول أن يخلصني من هذه الحيرة التي تأكلني من الداخل، مطبطباً على كتفي ويدسُّ بي الصبر، هذا الصديق الأقرب إلى قلبي ومقبرة أسراري، صديق كثير علاقات الحُب حيث يحب الكثير من فتيات الجامعة، ويعشق أغلبهن، كان رفيقاً مثالياً عندما دلف يردد في أذني حكمة لا يطبقها: (إذا كان الصبر مُرّاً فعاقبته حلوة).

هذه الحكمة سرقتني من فوضتي قليلاً إلى الضحك، فقلت له حكمة وأنا أضحك: (فإن قليل الحب بالعقل صالح وإنَّ كثيرَ الحب بالجهل فاسد)، ثم همستُ: (والعاقل يفهم).

طوى سنان ذراعيه حولي بشيء من الدهشة يبرز وجهاً متجهماً، وشدني إليه بقوة قائلاً: ماذا تقصد آدم؟ أردف قائلاً (دائماً لاذع).

جعلني جوابه أعود من جديد أعيش جديَّة الموقف والانتظار الذي أتأمل به سماع صوت طقطقة أقدام والدتي وهي تتقدم وتسلب شعوري المليء بالقلق، ولم أكن لأفكر في شيء آخر غير جواب أُمي التي كانت قد ذهبت منذ ساعتين ولَم تكن لها غاية في التأخير هذا، بينما كنت في شك أن هناك أمراً طرأ، وقد يكون في صالحي هذا الصبر ليصبح بعدها الإحساس بالاسترخاء عند سماع جواب لسان والدتي يحمل كلمة (موافقة).

ولم تمر لحظات، وإذا سنان قفز قبلي نحو باب شقتنا كأنَّما هو من كان يمشي على أكوام من الجمر ليلتقط رسالة ساعي البريد الذي يقف في الجانب الآخر، حينما صرخ أنها والدتك آدم لقد وصلت...

طرق الباب وركض سنان نحو مقبضه، بينما أنا بلا حراكٍ قدماي متصلبة كأنني طفل مصاب بالكساح، أو شخص يشعر بالتجمد لحظة سجنه في برّاد للمثلجات غير متمكن من الوقوف إلا عند سماع صوت والدتي تقول

أُماه تعال هُنا؛ لأسلمكَ جائزتك، كانت والدتي تدخل بتلك التعابير الغامضة، تحجم عن التكلم وهي تقف جنب حافة الباب، تنظر في وجه سنان بخيبة، ليسود الصمت، ويتضح هذا الكبت الجريح في تجاعيدها، واقفة أمامي تتنهد، هزيلة بما تحمل من الخيبة، دلفت ببطء لا تحرّك ساكناً مقتربة مني، تجلس إلى جواري، تحيط يداها كتفي، تنظر في وجهي متأخرة في إخراج الكلمات التي تجعل قلبي على وشك الوقوع، كما أنَّ الانتظار يأكلني أكثر من تلك اللحظات التي تحاول بها والدتي أن تأخذ نفساً عميقاً وتتكلم بعد صمت طويل أخيراً نطقت قائلة:

- قسمة ونصيب يا ولدي.

كان هذا الجواب صدمة لي، مزّق شيئاً في أعماقي وأنا أضع يديَّ على رأسي منحنياً على قدميَّ، رويداً رويداً، رفعت رأسي نحو أُمي قلت لها: هذا مقلب! أنتِ تمزحين معي أليس كذلك؟!

واصلت حديثها كأنها لا تكترث لدموعي التي ستسقط بنظراتها المتسائلة وقالت: إنَّها غير مناسبةٍ لك..

قلت باقتضاب: أنتِ تمزحين كفى!!

أجابت متأففة: والدا ماري غير موافقين!!

محدقة بي ثمّ أدارت وجهها عني وقالت:

لكنهم يمدحون بك كثيراً مع ذلك كان موضوع ارتباط ابنتهم الآن شيئاً كارثيّاً بالنسبة لهم!

واصلت حديثها محاولة تهدئة الوضع، في حين لا شيء يحاول أن يوقف سخطي داخلاً عالماً من التقريع بملامح تبرز وجهي ذاوياً، وهذا ما يثير الخوف لدى سنان عندما يرى الدم يصعد حاراً إلى صدغي من شدة غضبي..

- هذه ليست نهاية العالم، قال سنان.
- هذا صحيح تقول أمي: سأزوجك أفضل منها، بها من الجمال ما يسر ناظريك بما تشتهي؛ من عيون زرقاء، شعر طويل، جسدٍ جميل وجذاب.
- أجمل فتاة ممكن أن تقبل بك، قال سنان.

فصرخت في وجه سنان: لا أريد غيرها، ولن أنصف أنثى بديلة لها، ولن أحب امرأة أخرى كما أحببتها، أدرت وجهي ثم خرجت أصفع مقبض الباب بقوة..

- تعال أين ذاهب؟ قال صوت سنان يبعث بي التأسي من خلال الجانب الحاسم بكلمات أشبه بمخدِّر الأعصاب إلا أنني أخرج من البيت مسرعاً أحمل تلك الجمل التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا أجد نفسي إلا في مقهى جمرة مجدداً.

وصلت أخيراً غارقاً بالعرق بعد أن أنهيت الطريق سريعاً عكس الأيام الخوالي التي كانت تأخذ ربع ساعة للوصول؛ بسبب خطواتي الغاضبة والسريعة، كنت أجلس في آخر زوايا المكان، أبكي من الداخل والخارج، وهذا في حقيقةِ الأمر ليس إلا نتيجة مقبّلات لهجوم من الوجع قد يسلط

عليَّ وجباته المتتالية في أيّ لحظة قادمة، أخذت أضع يدي على رأسي؛ كي لا يرى أحد انكساراتي، وللأسف على مقربة مني هؤلاء الرباعي الخطير، إذ كانت ثرثرتهم تأكل رأسي وتضرب به بمطرقة، وربما كان الأفضل لو قررت المجيء في وقتٍ مناسب؛ لمشاركتِهم النقاش فهم ربما يحملون من الأجوبة والتجارب بعدد شعيرات رؤوسهم البيضاء، لأنني أعرفهم جيداً في الواقع وخلال وجودي في هذا المقهى، لكن التوقيت خاطئٌ الآن، إضافة إلى مخالطتهم لقبيح آخر يدعى هشام (أبو تراب).

أخذت أصيح به: عم جمرة من فضلك شاي يُعدل المزاج، لعله يخمد من هول مصيبتي، أتاني سريعاً جمرة متقدماً لي بعبارة: غالي والطلب رخيص ولدي.

عمَّ الصمت قليلاً ثم ارتفع صوتهم قوياً، وبدا كأنَّهم يتشاورون عن مظهري المثير للجدل، بقيافتي الخارجة عن المألوف مع الموجودين، وكأنني عارض أزياء نسبة إلى ملابسهم التي انتهى موديل ارتدائها، ارتفع صوت المتحدث هشام (أبو تراب) يصرخ على صالح بعبارة (تباً لك يا قوّاد نحن لهم)، عندما اتهمه الأخير بأنَّهم ميليشيا.

انتهيت من مشاهد الميلودراما وادّعاء كل من هؤلاء الأربعة بالمفارقة عندما ينفخ كل منهم ريشه للآخر متظاهراً بمبالغة تجعل كل من يدخل المكان يفكّر عدة مرات ألّا يعود هنا مرة أخرى وسط هذا الضجيج، فحملت نفسي بعيداً عن ثرثرتهم وخرجت أجلس خلف

زجاج شباك المقهى، عِندها انتبهت أنَّ هاتفي كان قد رنَّ ثلاث مرات بلا إجابة من رقم غريب، كنت متردداً بإعادة الاتصال لمعرفة صاحب الرقم الذي اتصل بي مسبقاً قبل يوم دون أن أجيب، أرجعت هاتفي في الجيب السفلي، وأخذت أنظر من بعيد لأبي تراب بحقد وخبث، ولطالما كنت أكرهه بشدة وهو يعلم ذلك.

وبما أن المصائب لا تأتي فرادى، يطرأ انفجارٌ مدوٍّ آخر:

يرنُ هاتفي، كان الرقم الغريب نفسه يتصل بي! أخذتني حيرتي متردداً بين الإجابة من عدمها في الوقت الذي يعترينى الخوف من أيّ خبر آخر يؤدي إلى حلقتي الأضعف، رحت أفكر سريعاً في احتمالية أن تكون ماري على الهاتف فقمت بالرد:

- مرحبا آدم؟ صحيح؟
- نعم سيدتي من معي؟
- أنا والدة ماري يا ولدي.

أردفت: أنت ولد مهذب ولا يعيبك شيء، لكن أتمنى أن لا تتواصل مع ابنتي بعد الآن ولا تحاول الاقتراب منها أبداً.

تتكلم والدتها سريعاً مع نبرةٍ أشبه بالصياح ولم أحصل على فرصةٍ للرد على هذا الهجوم.

أردفتْ قائلة:

- لن ترى ماري بعدَ الآن ولن أسمح بأن تتواصل معك.

أصدر الهاتف صوت رنة الانفصال، ولم أكمل حديثي بعد أن أغلقت الهاتف.

دخلت بالقرب من مجموعة أبي تراب حانقاً بنظرات الخبث كأني أحمِّلهم ما حصل، لفَّ أبو تراب وجهه نحوي ثم رجمني بنظرات الانتقام، بادلته نظرة مشابهة واستدرت أبحث عن مكان أقل ضجيجاً.

كنت أجلس وحيداً بعيداً عنهم لا أطيق أحداً، ولا أفكر بأن يكلمني أحد، حينها تذكرتُ أني تركت كتاباً آخر مرة في المقهى، جلبته وعدت أجلس خارجاً في باب المقهى، كانت رواية للكاتبة الفرنسية فرانسواز ساغان تدعى (صباح الخير أيها الحزن)، نظرةٌ في الكتاب وأخرى حانقة نحو أبي تراب الذي خرج من السجن كالشعرة من العجين.

بعد دقائق معدودة تركت الرواية ودخلت إلى حمام المقهى، نظرت إلى وجهي وتساءلت؟

كيف للأيام أن تكون قاسية إلى هذا الحد؟

وكم هي قاسية عواقب الحب! بعد أيام مرت كنت بها في دفاع شرس عن مبادئ الحب التي اتضحت أنَّها سخيفة بأسباب غير مقنعة أبداً، عندما تفكر بها قليلاً بينك وبين نفسِك ستخاطب الرب: إلهي لم تنتهِ هذه العلاقة بمشاجرة أو خلاف يذكر كانت الأسباب بلا سبب، برفض جعل هذه الأيام تنهش بي، جعل هذه المرآة المعلقة في زاوية الحمام تعطيني ملامح الحبيبة وبعض علامات التعجب؟! لكنَّها مبتسمة على الرغم مما وصلنا إليه، تنظر لي بانعكاس ينتج وجهها بدلاً مني، وأنا أمسكُ صورة واحدة لها أحتفظ بها وأشكو إليها

منـي ومنهـا، سـألتني حينهـا لمـاذا لـم تحلـق ذقنـك وشـعرك؟ رجـاء اهتـم بنفسـكَ مـن أجلـي، لا تقلـل مـن نفسـك، تسـتحق مـن هـي أفضـل منـي، أنزلـت رأسـي وبكيـت لأول مـرة، كنـت أنـدب حظـي، حينهـا وصلـت إلـى حقيقـة واضحـة وهـي النصيحـةُ التـي أحملهـا فـي جيبـي الآن لجميـع العشـاق: عندمـا يتعلـق الأمـر بالحـب ابتعـدوا لقـد أخـذت مـن العـذاب مـا يجعلنـي تعيسـاً ومريضـاً بـدون أخـذ الأدويـة، عقـاب جعـل روحـي ممزقـة بالوقـوف فـي طابـور الذكريـات هـذا، كنـت أتذكـر كيـف مزقـت الرسـائل لعلاقتـي الغراميـة فتـرة المراهقـة التـي لـم أقـم بإرسـالها فقمـت بتمزيقهـا خارجـاً؛ لأنـي أعـرف تأثيـر الريـح علـى مهندسـي النظافـة ليقومـوا بتجميعهـا والتخلـص منهـا، رسـائل إذا قُصّـت خطيـرة جـداً، تحتـوي الكثيـر مـن البـؤس والأفـكار التـي تحـرض علـى الانتحـار، إذا بعثـت فـي حينهـا تولـد كارثـة تحتـوي الكثيـر مـن الألـم والضيـاع، رسـائل وخسـارات جعلتنـي أحمـل سـكينة جيـب أضعهـا أسـفل بنطالـي كنـت أنـوي بهـا حمايـة نفسـي لبعـض الوقـت.

بعـد أن مـرت ربـع سـاعة مسـحت وجهـي وخرجـت مـن الحمـام، عـدت لإكمـال روايـة مفضلتـي سـاغان.

- ممكن فنجان قهوة لو سمحت؟ قلت لعامل المقهى.
- اجلـب قهـوة بسـرعة لماركـس العـرب، قـال أبـو تـراب ضاحـكاً بشـكل حقيـر وبشـع يجعـل أسـناني تصطـك حنقـاً، وأنـا أديـر وجهـي عنـه لعنـتُ شـياطين المـكان

ورحت أركز أكثر في الرواية متجاهلاً خطاب هذا الغبي وضحكات الخبث من أصدقائه ومن هم في المكان، تمادى مرة أخرى بصوت عالي (ماذا تقرأ يا شاعر العرب، تعال هنا قص لنا قصة جميلة).

تجاهلت صوته ونداءه بعدم اهتمام منشغلاً بالقراءة، رفعت وجهي وإذا بأبي تراب طويل القامة يمسكني من قميصي يضربني كفّاً، سمعت به دوي انفجار طبلة الإذن اليسرى، وإذا بي أنفعل مع هيجانٍ يجعلني أفور من شدة غضبي، وأخرج سكينَ الجيب أضعها في عينه..

صراخ ثم صراخ، الدم يملأ المكان، ضربتي جعلت بؤبؤ العين يقفز في أحضان الجالسين، أما البقية من أصدقائه مصدومين لا يعرفون ماذا يفعلون مع هذا المجنون الذي تورّطوا معه..

كنت أركض سريعاً وهم يركضون خلفي مع خوفٍ كبير، كنت أفكر ماذا سيحل بأهلي مع هكذا مافيا خطيرة، مع ذلك في داخلي أقول يستحق ما هو أكثر من ذلك.

يوم عنيف، ملوّن بالدماء القذرة

هروب طويل، أركض سريعاً، أسمع تنفسي المتحشرج يخرج مثل كلب يلهثُ عطشاً أقف مختبئاً في كل استراحة بجسم مرتعش، كلما اقترب أحدهم عدت منهزماً، بعدما أقرضت أهدابي بسكيني، خرجت من المقهى وأنا أنبت حدّتها في عين أبي تراب كان الكثير منهم يلاحقوني ويصرخون ((امسكوه لقد قتل أبا تراب)).

هاتفي يضج بالاتصالات والرسائل، أغلبها من سنان وأبي، احتوت الرسالة الأخيرة من أبي:

«اهرب إلى بغداد بسرعة».

أما رسالة سنان الأخيرة:

«يبحثون عنكَ في كل مكان، اهرب يا صديقي سيقتلونك » .

يومان مرّا وهاتفي ممتلئٌ بالاتصالات، وأفكر سريعاً ماذا أفعل لكي يفهم والداي ما جرى؟ اتصلت لأخبر عائلتي أن يتوخى كلٌ منهم الحذر، أعلمت والدي كل ما حدث حينها، سمع مني الحادثة دون أن ينبس ببنت شفة حتى تخلّص من ثقل بلعومه وقال كلماته المختصرة، كان يتكلم بحرقة قلب أما صوت أمي يحترق ألماً..

»يا بني ماذا فعلت؟ أردف سوف تجد مبلغاً من المال لدى صديقك سنان خذه واهرب بعيداً سوف يقتلونك إن وجدوك».

اتصلت بصديقي سنان واتفقنا على مكان سرّي والتقيت به..

يا صديقي ماذا فعلت؟ قال سنان.

أردف دمّرت مستقبلك مع هذه المجموعة، من ضربته رجل مافيا معروف حتى إنَّ والدك طلب منهم أنْ يُنهى الموضوع بمبلغ من المال لكنَّهم لا يسمعون فهم يملكون المال ولا يحتاجون غير الانتقام فذاك الرجل فقد عينه تماماً، خذ هذا المبلغ من والدك واهرب بعيداً يا صديقي..

هروب طويل يا ماري، لقد قتلت والدتكِ صرخاتي النائمة، ولم يبقَ غير تلك الأصوات الأخيرة المزعجة جداً، آخرها صياح أبي تراب، وقبلها والدتك التي قطّعت قلبي إلى أشلاء ومزّقت فؤادي، آه يا عمّتي لو تعلمين شعور أنّ أسلب منكِ ابنتك الوحيدة على سبيل المثال، نعم هذا شعوري في واقع الحال فهذه ابنتي وحبيبتي وزوجتي، آه لو تعلمين كم لبثت أجمع ضحكات فتيات بلدي لأسقط بين ضحكتها وعيونها، ماذا عن عيونكِ هل رأتني عيوباً؟ ماذا عن تفكيرك المعقد من أيّ منطلق خلق الرفض! كيف لكِ يا أمي الثانية أن تكوني سبباً في دمار الحب بهذه الحرب العاطفية التي شنّت علينا؟ كيف لك أن تلعبي دور القدر وتمنعيني من سعادتي التي حاربت من أجلها وقنعت عائلتي بها؟ لكنّي لا أستطيع أنّ أشرح لكِ مسألة الفوز والخسارة فنحن خاسرون وسط حرب محلية الصنع من قعر الدار، من أناس كانوا من المفترض أن يكملوا ما بدأناه ويقطعوا كل تلك الأسلاك الشائكة التي قد تفصلنا أو تزعزع السلام بيننا، فلم أكن أعلم أنَّكِ تلك الشوكة الضارة التي ترفض أن تنبت في بستان يحتوي الكثير من الورود والألوان والبلابل والحب، ولم يكن رفضك مقنعاً أبداً وغير منصف، لم يكن هناك سبب عادلٌ من خلاله أندب نفسي وأقذفه على الحظ الذي ربما يلعب دوراً وحاجزاً في بعض العلاقات التي لم تنصف بسبب قرار عنصريّ!! عنصريّ يصل الى الاختلاف الذي لا نحب أن نتبناه ولَم نفكر يوماً أن نصنع به المفارقات، محتوين الكل

تحت فكرة الحب يحتوي الجميع ولا ينكر الأديان الأخرى، فالحب عمود العلاقات ووصال السلام الذي كنت أتمناه مع ابنتك فأنتِ أمٌّ كنت أظنها تعي معنى السعادة لابنتها لا مقبرة تدفن أحلام الأحبة.

هروب أرداني إلى أربيل أجد به نفسي أمام القنصلية الفرنسية، استمرَّ بقائي أمام بوابة القنصلية ٣٤ يوماً، أخبرت الحرس الخاص بأنِّي مهدد وسوف أُقتل إذا وجدوني، كان جواب الحرس الخارجي جميعهم (اذهب من هنا، لن يستجيب لَكَ أحدٌ).

بعد أن لفحتني الشمس بنيرانها، أقفُ دون هاتف ولا ملابس كافية، ما عدا أوراقي الرسمية وجواز سفري الساري المفعول الذي أسداني بهن سنان آخر مرة..

انتظرت طويلاً أمام مقر القنصلية الفرنسية في أربيل طالباً منهم موعد مقابلة دون جدوى، لكن بعد صعوبة كبيرة للدخول إلى السفارة أمام الأمن الخاص بالسفارة أخذوا مني معلومات كاملة ومستمسكاتي الخاصة مع فيديو لكاميرات منزلي لحظة الهجوم على منزلي بإطلاق نار كثيف من قبل هذه المجموعة التي لا ترضخ للقانون، فيديو وثّقه والدي وقام بإرساله لي لاحقاً من هاتف أحد رجال الأمن، فقدّمتها لهم للحصول على موعد في قسم التأشيرات لكن دون جدوى أيضاً، كنت أنام أمام أعينهم أنتظر الفرج يطرق كتفي بنداء الاستغاثة إلى أنْ لاحظ شخص مهم في السفارة الفرنسية حالتي، وسألهم لماذا

ينام هكذا في الشارع؟ ما هي قصته؟ فساعدني بالدخول وحصلت على موعد، حينها جلس معي مجموعة منهم وقصصت لهم ما هي مشكلتي وما مررت به من ظروف صعبة، حينها شاهدوا الفيديو الخاص بالمجموعة التي تنوي قتلي، بدو مقتنعين بما شاهدوه فوافقوا أخيراً وحصلتُ على فيزا السفر لكن فرحتي نائمة. آه لو تعلم ماري ماذا يحدث لي الآن..

الفصل السادس

1999/2/17

دلال ذات ال ١٨عاماً تعاني لدى بيئة تخضع للقوانين والتقاليد العشائرية، في عائلة تقتل طموح الدراسة، ذلك عندما كانت متفوقة في صفوفها مما جعلها تشغل المراتب الأولى في محافظتها البصرة بحصولها على أرقام متقدمة في تصنيف الشهادة الثانوية (السادس العلمي)، لكن عائلتها قتلت حلم صعود سلّم الطموحات الذي وصلت إليه بأعجوبة، وهذا الحد يبدو كافياً بالنسبة إلى إخوتها الذين تمَّ عزلهم عن الدراسة في مرحلة متأخرة من الابتدائية، إذ كانت القراءة والكتابة كافية لهم وما وصلت إليه دلال بإصرار والدتها يُعد اختراقاً للقوانين الوضعيّة القبليّة في بيئةٍ عشائرية خالصة، فلا توجد في عائلاتهم فتاة تصل إلى ما وصلت إليه أنْ تدخل جامعة مخالطة شباب عيونهم تأكل جمالها ومفاتنها، ولأنَّها تجاوزت الحد غير المسموح به جاء الوقت لإنهاء أحلامها، وإيجاد زوج يروّض شبابها، وهذا الشخص هو الابن الأكبر لصديق والدها، وهو شيخ معروف من أغنياء العرب يملك من الأراضي والبساتين ما يكفي رفاهية

أبناء الأحفاد، وله ابن يبلغ من العمر ٣٠ سنة، كان يفكر في تزويجه من فتاة محافظة كما هم، وهذه الصفات تنطبق على دلال الجميلة، فكان الاتفاق مسبقاً بين الآباء على موعد للخطوبة، ما جعل دلال تشعر بعدم الرضا والرفض، مصرحة في وجوه عائلتها ووالدها؛ ماذا تفعل يا أبي لا زلت طفلة؟! فقوبلت بعدم الإنصات وتَحدد موعد الزفاف وجرى ما جرى، لتدخل معمورة الجحيم في منزل مختلف الأثاث، والرائحة والشخوص والقوانين..

دخلت دلال غرفتها المختلفة هذه المرة بما تحتوي وستتشارك بها السرير مع رجل لأول مرة، وهذا مغاير لما كانت عليه الأمور مثلما كانت تنام مع أختها سارة وتتشارك معها الوسادة والغطاء تحت ذلك الضوء الذي يبقى مفتوحاً بمصابيحه المزعجة ويحدث ضجة من القرارات والاختلافات حتى تتمكن من فرض رأيها بإبقائه مضاءً، وقد يبدو اليوم أنَّها ستعاني كثيراً حتى تتمكن من أن تخمد تحت سقف هذه الغرفة المظلمة التي ستشهد سقوطها في عش الزوجية المفروض قصراً حتى لو كان سيلائمها بقاء المصباح مفتوحاً، كانت تجلس في غرفتها الحالكة في انتظار كيف ستمرُّ هذه الساعات، تفكّر في ليلتها الأولى وفي كيفيّة ملامح هذا الكائن الذي لم تتمكن من مخاطبته بصورة مباشرة يوماً، ولم تمر سوى دقائق معدودة حتى دلف زوجها يفتح مقبض الباب ويدفعه بكلتا قدميه، وانكب على السرير يطلق ثرثرة

على مسامع سيدة سيتقاسم معها السرير، بعد أن انتهى من كلماته أخذ يلتحف غطاء الرأس، وينام من غير أن يلمسها، ما عدا أنَّه يتوعد بأنَّه يحبها وهي في بيت آمن، وهذا ما يولّد الخوف ويجعل الأفكار تتشابك في مخيلتها بمفردات (كيف؟ ولماذا؟) لماذا لا يقترب مني!؟ كيف لم يلاحظ جمالي؟ ماذا يخبئُ لي؟

بعد أيام مرّت، استيقظت دلال من النوم، على المنوال نفسه، تجلس في وسط السواد وهذه المصاريع المغلقة بغرفة ظليلة، رفعت جسدها المثقل بعد أن اشتمت رائحة كريهة، دلفت نحو نقطة الكهرباء تشعل مصباح الغرفة حتى انتبهت على فوضى المكان، إذ لمحت الطاولة المخصصة للإفطار تحتوي على الكثير من مشروبات الكحول ولبن وليمون وبعض الفواكه، كان الزوج يفتعل الجنون ويصدمها تباعاً، وهذا ما يثير الجدل والتعجب!!

يبدو أنَّها تتساءل فيما بينها؛ هذه صفات الإنسان الذي ادعى والده أنَّه ناجح وثري وتحلم به العديد من الفتيات؟! بدت في حيرة من أمرها تشعر بخواء روحها ولا تعلم ماذا تفعل؟ بينما تشاور نفسها دخل زوجها (أدهم) وهو يرتدي تيشيرت ولباساً قصيراً ويضع على رأسه منشفة بيضاء ناصعة، أخذ يرميها بنظرات اللامبالاة مع ابتسامة جذلى، أمام غمغمة دلال، حتى انتبه الى سخط وجهها العنيف وقال:

- وجهكِ أجمل وأنت غاضبة.

- باقتضاب ماذا تفعل؟ لما هذه الفوضى؟

أردفت تهدد: سأخبر الجميع بهذا الجنون.

قاطعها بصفعة على وجهها وهو يقفز طوى ذراعيه على عنقها، وقال سأقتلك إذا تكلمتِ.

راحت تدافع عن نفسها وهي تجرب أنْ تخلص نفسها وتستنجد به (أنا أختنق يا مجنون).

توقف بعد أن لاحظ أنَّها انهارت كفريسة ضعيفة بين يديه وأفلتها قائلاً.

- سنعقد اتفاقاً يا دلال عند موافقتكِ أتركِ بخير، سأخبرك سرّي بشرط أن لا تخبري أحداً.

وجدت دلال الأمر مشوقاً وهي تريد أن تعرف ماذا يخبئُ.

- انا موافقة حسناً أخبرني..
- هذا الزواج يا حبيبتي واجهة اجتماعية، أنا تأخّرت بالزواج لسببٍ واحد، ووافقت على الزواج لسببٍ واحد.
- أيّ أسباب؟
- تأخرت لأنني لا أحب الزواج من امرأة!

ووافقت بسبب إصرار والدي، أنا إنسان ناجح لا ينقصني شيءٌ، فوجود زوجة وأسرة تقليدية يحافظ على مكانتي الاجتماعية بشرط أن لا ينفضح سري..

- سرك!! ولا تحب الزواج من امرأة!!
- نعم، أنا مِثلي الجنس يا (دلال).

قفـزت دلال مفزوعـة تشـعر بصدمـةٍ غيـر متوقعـة، صرخـت مـاذا!؟ مـاذا تقـول!؟ لمـاذا قبلـتَ الـزواج بـي إذا كنـت مـن المثلييـن؟

أخـذ يمسـك فمهـا بيديـه وقـال: دعينـي أكمـل وأنتهـي عنـد ذلـك لـكِ الحـق بالـرد..

أردف: إذا كنـتِ بحاجـة للمعاشـرة الجنسـية سـأكون موجـوداً، لكـن ببـرودٍ فـي الأداء معـكِ؛ لأنـي لا أحبهـا إلا مـع رجـل، تخيلـي أداء رجـل يحـب المعاشـرة مـع رجـل مثلـي مثلـه، لكنـي أعـدكِ بأننـي يمكننـي إرضـاؤكِ مـن دافـع أداء واجـب الزوجيـة وليـس مـن بـاب رغبـة داخليـة.

همّـت بالقـول تقاطعـه باكيـة: لقـد قمـت باغتيالـي معنويـاً ونفسيـاً.

ثـم ضحكـت كأنَّهـا تهـزأُ بنفسـها، وقـد اكتشـفت خداعهـا مجـدداً، وبـدأت تشـعر أنَّ كل شـيء غيـر طبيعـي، لا زوج يهتـم بهـا، ولا عائلـة تفهـم مشـاعرها المحطّمـة، بـدأت تشـمئز مـن فكـرة وجودهـا تشـارك فـي عمليـة جنسـية دون دافـع، وإن كانـت تحلـم بالأطفـال فهـي تزوجـت مـن رجـل لا تُحبـه ومثلـي أيضـاً، موافقـة علـى حفـظ سـرِّه بشـرط أن لا يؤذيهـا ولا يتقـرب منهـا.

وافقـت رغمـاً عنهـا، واقتنـع أدهـم الملعـون مـع ضميـره المتواطـئ، وقفـز الـى فراشـه وغـطَّ فـي سـبات عميـق منتصـراً بخـذلان رجولتـه وهزيمـة سـيدة تبـدو كأنهـا تصرّفـت بحكمـة رجـلٍ كهـلٍ قلبُـه مـن حديـد لكنَّـه لا يتجـرَّأ

على المقاومة، ربما قد تقبل خسارته بالتراضي مع الأيام القليلة المتبقية بحياته.

قضت دلال طول الليل تفكّر بين نفسها بماذا لو كانت هناك حرية لهذا الرجل ليعيش مقبولاً مع مثليٍّ آخر، ويختار من يحبه ويتزوج به هل كان سيفكّر بالزواج بي؟

يا إلهي أعلم أنَّ هذه نماذج سيئة جداً، وهناك نماذج أسوأ لكنِّي أفكّر في زوجي وهؤلاء الذين تدفع بهم أفكارهم نحو الخلاص بكونهم نموذجاً سيئاً للرجل المثلي، ولا أشك بالكره للمثليين من قبل المجتمع، وما هذه السلوكيات غير أنَّها ردّة فعل الجهل من الظلام وعدم الثقافة والوعي الذي يدفعهم للانتقام من أنفسهم والتفكير بهذه الأفعال، ولكن يا إلهي أعرف أنَّ هناك السيء والجيد في كل مجال ليس كل المثليين شياطين، وليس كلهم ملائكة، إذا كانوا يحسبون هذا الفعل حرية فهذا شأنهم، وإذا كان هذا خللاً هرمونيّاً منذ الولادة فهذه مصيبة حلّت بهم، ولكن ليس على حساب تحطيم قلوب النساء.

قلب دلال الحنون يجعلها تفكر في أنَّ هذا الزوج قد يكون ضحية تفكيره الذي جعله يسلك الاتجاه الخاطئ، مع ذلك كانت تفكر أنّ تجرب مراراً أن تصحح به أملاً ألا يكون هذا دون جدوى.

بعد مرور أسبوعين كانت دلال تبدو قد فشلت على تخليص هذا الزوج المسكين من سلوكياته، ومازال أدهم بتلك السلبيات المعتادة المصحوبة بقذارة المكان وتلك

الرائحة النتنة، وماتزال دلال تندب حظها العاثر بهذه الأيام المشؤومة والملعونة.

في هذا اليوم الذي صادفت به عائلته مغادرة لزيارة بيت عمه دلف أدهم لغرفة زوجته يخبرها أنَّ أصدقاءه قادمون لقضاء بعض الوقت معه وعليها الجلوس لوحدها في غرفتها، وأنَّهم سوف يستخدمون الغرفة العلوية المجاورة لغرفة نومهم الى السهر والثرثرة، وجرى الأمر وتقبلت الفكرة بكراهية وعدم مقبولية لكل ما يحدث، مرَّ الوقت وتجمّعوا، وعلتْ أصواتهم وعمَّت رائحتهم في أجواء البيت، وبدأت دلال تسمع أصوات وإيحاءات غريبة وهم يقومون بممارسة أفعالهم المثلية الشنيعة، كانت قد راودتها فكرة مجنونة الآن ناقشتها ما بين نفسها، وهي في الدخول عليهم للغرفة المجاورة تمسك بندقية محشوّة جيداً بالرصاص لتفرغها في أدمغتهم لكنَّها ضعيفة تتراجع عن مجموعة هذه الأفكار التي لا ترتبط بالواقع، تعود للبكاء وهي تضع وسادة سريرها على رأسها، تتجرَّع مرارة هذه الأوقات الصعبة.

عمَّ الصمت قليلاً، وقد صار الوقت متأخراً، وبدأت دلال تستشعر أنَّهم قد يتهيّأون للرحيل الآن، بعد ثواني دلف أصدقاء زوجها يدفعون باب غرفتها واحداً تلو الآخر، كان آخر المخمورين يغلق مقبض الباب بهدوء، حاولت دلال الصراخ كثيراً تنادي بأدهم وهم يحاصرون المكان، لكن انتهى ذلك مجرد ما قفز أول المجانين يغلق فمها بمنديل

قسراً، أخذت تحاول بقوة الهروب وهي تركل الجميع، لكنَّه يبدو وضعاً صعباً عندما يضع الأخير يده على لسانها، أما البقية أصحاب الأجساد الخشنة دلفوا يمزّقون ملابس دلال، ويجعلون الجسد الناعم عرضة للبقع الزرقاء من الورم وهم يغتصبونها، مرّت ساعة كاملة كانوا حينها انتهوا من لعبتهم وهم يخرجون من مسرح جريمتهم من تلك الغرفة التي قد يكون السجن بمثابة دار سينما لدلال على حجم هذه المعاناة وهذه الجرائم النفسية بحقها .

مرّت أيام تعيسة أخرى وماتزال أفعال هذا الزوج تتواطأ لفترة طويلة بتكرار المشهد نفسه ولمدة ٦ أشهر، وما بين يوم وآخر كانت تراود دلال أفكار الانتحار تارة وأفكار التمرد لكنَّها تعود منكسرة كل يوم بما تفكر، ما عدا فكرة الهروب التي لازمتها منذ الوهلة الأولى لدخولها هذا القبر الذي يسمّى منزلاً، ولكن دون أساس أو قيم ادّعى ساكنوه أنَّهم يمتلكونها ويطبقونها بين وجه وآخر، بين ضحية مثلها وأخرى، فكان السبيل الوحيد هو الهروب من عائلتها التي قدّمتها كسلعةٍ رديئة الجودة من غير ضمانات وحقوق، عائلة تجد فكرة الهروب لعبة منها للتخلص من مسؤوليات الزواج، وهذا ما يجلب لهم العار تحت فكرة (ليس لدينا فتاة تتطلَّق)، لكن لدينا فتاة نقدّمها فريسة لوحش من لحم ودم، ينافس ويتفوّق على حيوان خنزير بريّ منبوذ من الرَّب وغالبية الناس يُدعى الزوج المثالي!

اليوم هو الثلاثاء المصادف 12/6 يونيو

مـرت أيـام، ودلال تعيـش فـي دوامـة، اسـتنفذت قواهـا، ولـم تتخلـص مـن وسواسـها: إنَّ عليهـا السـفر بسـرعة، والاحتمـالات تطوقهـا بالأسـئلة، ومـازال أدهـم لـم يعُـد مـن السـفر بعـد غيابـه صدفـة، وهـذا مـا يقولـه أهـل زوجهـا علـى مسـامعها، مسـافرٌ دون أن تعلـم.

كان الطقـس حـاراً جـداً وغرفتهـا ظليلـة، مكثـت فـي سـريرها وعيناهـا أعلـى السـقف، متغلبـة علـى رأسـها، لا تسـتطيع النـوم لأنَّهـا تفكّـر بالخطـة التـي رسـمتها منـذ الأيـام الأولـى مـن زواجهـا بهـذا الشـيطان رغبـة للشـرود مـن هـذا المـأزق، كانـت لهـا صديقـة تدعمهـا تدعـى حنيـن، هـذه الصديقـة تعـرف كل الجرائـم النفسـية التـي تعرّضـت لهـا دلال وهـي علـى تواصـل مسـتمر بمـا يجـري، كانـت سـيدة الحلـول، بعـد أنْ كانـت حنيـن وزوجهـا الـذي كان علـى علـم بمـا يحـدث لصديقـة زوجتـه ومـن بـاب الإنسـانية قـرر مشـاركتها مسـاعدة دلال بمبلـغ مـاديٍّ جيـد إعانـة لهـا دون أيّ تأخيـر قـد يُفشـل الخطـة، بعـد أن حـددوا وقتـاً مناسـباً لكـي تتمكَّـن مـن الهـرب مسـتغلّة فتـرة غيـاب زوجهـا فـي السـفر، مغتنمـة هـذه الفرصـة، بعـد أن اتصلـت بهـا حنيـن تُخبرهـا أنْ تكون عنـد منزلهـا ظهيـرة اليـوم، وهـذا مـا حـدث بالفعـل، وصلـت دلال بـاب صديقتهـا حنيـن وراحـت تشـد علـى

يدها بحرارة، ودخلتا كلتاهما المنزل، بعد أن أنهت ليلتها بالمبيت عندها، كانا قد رسما خطة الهرب، وفي الصباح راحت حنين وزوجها يودّعان دلال وهي تنطلق نحو ربيعها الضائع، يبدو أنَّ خطتهم نجحت. طلَّ الصباح المصادف اليوم الأربعاء، الكل يبحث عن دلال، زوجها اللعين، عائلتها، الجرائد، قنوات التلفاز على أنَّها مُختطفة، العديد من الأصدقاء والأقارب، بحث مستمر دون جدوى، كان التحليقُ أفضل حلٍّ للتخلّص من مرحلتها القاسية، لتجد حريتها كطائر وجد ثقباً للهرب من قفص لم يكن ركيكاً أبداً، لكنَّها المعجزات والتدخّلات الإلهية، تجعلها تحلق عالياً كبالون هواء، وتقدم شكراً عظيماً لحنين بعد الرب الذي لن يتركها الان في مجازفتها هذه، أوصلها مهرِّب إلى سوريا برّاً، ثم إلى لبنان، استقرت في لبنان أربعين يوماً، ثم أرداها مهرّب اخر إلى تركيا، سكنت هناك شهراً، ثم بحراً إلى أثينا، من بعدها إلى قبرص، كانت منهكة برحلةِ الجحيم هذه، بعد أُسبوع أوصلها مهرب إلى ألمانيا، هنا وجدت رحلتها تنتهي ومرساها...

الفصل السابع

2013 / باريس

من عند كرسي يتدلى كأرجوحة يريد أن يسلبني طعم الصباح النشيط يبدو أنَّه تعاطف مع نعاسي وذهني المتطاير كلما أسدلت عينيَّ جفنها، وكلما قررت أن أكمل كابوسي المتعلّق بماري منذ ثلاثة أيام، إذ لم أعرف نهايته حتى وصلت أمي تلكزني تذكيراً بموعد الإفطار الذي أوشك به الطعام على أن يبرد حسبما تقول والدتي، تماماً كهذا الطعام الباهت أمامي الآن، ربما لأنَّه لا يعجبني الطعام الفرنسي ومازالت معدتي تتوق الى أطباق أمي.

مرت دقائق معدودة حتى لكزني عامل المطعم وقفزت مذعوراً قائلاً حسناً أنا قادم، ظننته أمي حتى قال بنبرة خشنة: إنَّه مطعم وليس فندقاً، فركت عينيَّ جيداً ولحسن الحظ لم يكن المطعم مزدحماً، ربما لكوني ما عدت أعرف الصباح من الليل، وهذه العيون المتخمّرة من النعاس شاهدٌ لئيم مثل ماري، تصنع الجريمة وتطرح السبب على المجني عليه كحادث، آه كم قاسية أنتِ، آه لو تعرفين بأنَّ هذه الليالي البيضاء لم تمرّ بسلام يا ماري، بيضاء لأنَّها تتحول إلى صباح عقيم بالتفاؤل والفرح، للأسف لم تصيبي النور في ساحات مخيلتي كما كنتِ

سابقاً تلونين الطيف الذي قد يفكر بأنْ يرسم كابوساً مخيفاً قد يحبطني، أو يفكر أن يأتي بشكل أنثى عقرب سوداء كبيرة جداً، وما عدت تقتلين تلك الأحلام التي لطالما كانت مزيفة بوجودك لكنَّها أصبحت حقيقية الان بعد أن كانت ترسم وردية من خلالك ملقحة جمجمتي بماء الورد، لكن الان لدي بشرى لكِ أتمنى أن تصل على شكل ثياب ممزقة أو كلمة عارية في منتصف الشتاء، أقول لكِ: سلَّم السلام قد تعثر بواقعة قد أردتني مرتطماً بالمصائب متوهماً بأن الحياة مثال للسعادة، وأجد البكاء في كل جانب صديقاً يولد الارتياح لبعض الوقت، وسط هذا التعب بجسد هش يأكل نفسه ويعطيني عقاباً قد كان متأخراً، صدقيني أنا لست بخير عندما تسأليني كيف حالك؟ ستكون الإجابة هالكٌ أنا هالك، وكل ما كنت به خدعة زمنية على شكل ابتسامة زائفة من قلب عدو يتربص وقوعي فشكراً لصانع المناديل الذي يجعلني أخفي البكاء أمام الشامتين وأدعي أنني قوي، هذا عار من الصحة، شكراً لهذه المناديل التي تشرب الحقيقة والدموع معاً...

اشتد المطر، امرأة مع ولدها تعبر الشارع، مظلة لا تنفع مع هذا التراشق الجانبي الذي يرتطم بأجسامهم، تجعله الريح ينزلق بغزارة وهذا الرعد يولد الارتباك لدى طفلها، حتى بدأت والدته تتخيل أنَّ شجيرات الزيزفون على جانبي الطريق سوف تقع واحدة فوق رأسها وهي

تتمايل، ركضت هاربة تطلب سيارة أجرة أمام نظراتي خلف نافذة المطعم الزجاجية التي أراقب من خلالها توقف المطر، ارتديت جاكيتي بعد انتهاء وجبتي وخرجت في ساحات باريس، ويقال إنَّها مدينة العطور حيث باريس تحتضن برج إيفل والأخير يحتضن عطور الوافدين، ليزرع ابتسامة يلتقطها السائحون يجد بها نفسه في صور مع الوافدين عبر برامج التواصل حيث يرحب أغلبهم بوصول أي كائن تحت ظلاله، أما البقية يحلم بالوصول إليه إلا أنَّهم لا يعلمون كيف وصل آدم هنا؟ وكيف أنَّ قنبلة موقوتة أرمته بعيداً، وامرأة لا تعلم أيّ عاصفة هبّت وأخذته بعيداً هنا، عند باريس وضعت قدمي أتأمل، علّني أجد فرصة عمل تأخذني قليلاً بروتين يقتل ساعات قليلة من تفكيري بأيامي البائسة، تركت برج إيفل نهاية الطريق وانطلقت أمشي وأقرأ كل اللافتات، توقّفت بعد أن وجدت نفسي أمام إعلان يعرض فرصة عمل في مطعم بسيطٍ للوجبات السريعة والمشروبات، في أجر قليل نوعاً ما بالنسبة للسكان الأصليين، دخلت واتفقت مع مدير المطعم على أنْ أعمل فترة النهار، وتمّ الاتفاق، أنهيت اليوم بنصف أجر؛ لأنّي وصلت متأخراً ولأتعرف على نظام سير العمل، أسرفت أوزع ابتسامة كاذبة، وأرمي الزبائن بكلمات نبيلة تشعر المقابل بأنّي سعيد إلا أنَّني سريعاً أعودُ بتلك الملامح المُتعبة، هشٌّ مرمي في وادٍ لا يحترم الاحتضان كعادات وطني، ولا أجد من يرميني بمزحةٍ كعادات الحي

الشعبيّ الاجتماعيّ، أضع تلك المعادلة التي لا تتزن هنا ملتزماً بتقاليد جديدة أصعبها معادلة التحديق في عيون الآخرين وتصرفاتهم الحصرية بالنسبة لي...

أنهيت عملي في المطعم بأجر بخس لم أقنع به، لكنّي في مرحلة قتل الروتين بعد أن انقضت ستة أشهر على وصولي هنا، وقاربت أموالي التي أخذتها من أبي على النفاد، فلم يتبقَّ الكثير، وصار من الضروري الاعتياد على أجواء باريس ومعايشة طبقة على ما يبدو مثقفة تحترم القانون والدستور وتحافظ على مناخ المدينة، وهي مفارقة شاسعة بين الحي الشعبي الذي كنت أسكن فيه وهذا المكان؛ فهناك السماء ذو بقع سوداء مع قليل من الأزرق بينما هنا كنت أتأمل كثيراً وأنا أنظر لهذه السماء التي تبدو لوحة من إبداع كلود مونيه، سماء زرقاء وغيوم لم تنقشع، لم تمطر هكذا في وطني منذ سنوات ...

عدت إلى شقتي وأخذت نوماً معتدلاً؛ لكي أحافظ على توازني ومواعيدي منذ الحين، لم أستيقظ إلا صباحاً كنت أستعد لروتين جديد في مطعم سوف يعزف الكثير من الرهط وسيكون من الأفضل الاعتياد على ذلك..

مرَّت الأيام والتزام كَميلِ الساعة في مواعيدي، وهذا ما جعلَ ربّ العمل يندهش، ربما لأنَّه كان يتوقع أنَّ هذا النظام كنَّا نمارسه في وظائفنا في الوطن، لم يكن يعي حجم التقصير وخرق الوقت والقانون وكل شيء عرض الحائط متاح في العراق، تركت جرعات المديح والأمور

على عواهنها ولم أخبره ما كان يجهله، كي لا يجدها نقطةَ ضَعف تقلل من حجم طموحاته بي، وهذا في واقع الحال لا ينطبق على كلٍّ مجتهد لأني لطالما كنت محافظاً على مئزري وحضوري. جرت الأمور على أكمل وجه، وصار عملي هو الحسنة الوحيدة التي أجيد القيام بها، وقد مرّت الأيام دون جديد ما عدا أن جذب انتباهي ارتياد المطعم سيدة صهباء، طولها فارع، يبدو أنَّها فرنسية من العيار الثقيل تطلق صفارات الأنظار نحوي، لا تقع خدمتي على طاولتها بسبب أنَّ كل نادل مسؤول عن عدد من الطاولات وبأرقام مقسّمة بالتساوي، ازدردتها للمائدة وخرجت وهي تطلق اًخر نظراتها نحوي دون أيّ ردّ فعل مني وأيّ اهتمام، بادلتها نظرة متجهمة وأدرت وجهي، حينها كان وقت عملي انتهى، عدت إلى الشقة متعباً، وجدت اتصالَين من سنان ورسالة سلام، عاودت الاتصال به وطمأنني أنَّ الحياة تسير بخير، أنهيت اتصالي به، وأخذت أتلذذ بسيجارة فاخرة كنت أخذتها من نادل يعمل معنا من كولمبيا، أخبرني بأنها تحتوي على نسبة قليلة من الحشيش تأخذك إلى عالم أجمل من فرنسا بعشرات المرات، لم أجد نفسي بعدها إلا عند الساعة الخامسة صباحاً، ملابسي متسخة من طفو السيجارة، قفزت سريعاً أخذت حماماً سريعاً، وبدأت بتحضير فنجان قهوة مع سندويتش بائت لوجبة البارحة، أنهيت وجبتي وانطلقت إلى المطعم.

كان روتين العمل كالعادة بطيئاً ومملاً، تردد قدوم

نفس الزبونة لكن هذه المرة تجلس في الطاولة التي أقوم بخدمتها، وهي تتقدم كأنَّها تتعمّد لفت نظري ترسل خطاباً حاداً محتواه (من الأفضل لك أن تقوم بمخاطبتي)..

لكزني صاحب المطعم وقال اهتم بما تطلبه أنسة شارلوت إنَّها زبونة مميزة، أجبت حسناً، يا للروعة إنَّها تُدعى شارلوت، قدمت نحوها وقلت:

- صباح الخير ماذا تطلبين سيدتي؟
- صباح النور، كوب قهوة لو سمحت. أجابتني وهي تمسك جريدة يوميّة تقرأ ما يدور حول العالم، ربما ستندهش عندما تعرف أنَّني من العِراق، متأكد حينها سيكون من الأخبار الانفجاريّة في هذه الجريدة خبر تعجبي يحمل عنوان العراق، سيكون من الأفضل تجنّب الحديث مع هذه السيدة أبداً، شكلها برجوازي على ما يبدو، شعرها الجميل مائل إلى الاحمرار، عيون واسعة كأنَّها عدسات ماركة.
- تفضلي هذه قهوتك.
- شكرًا لك، لو سمحت ما اسمك؟
- أُدعى آدم سيدتي.
- غريب وقريب، قالت تهزُّ رأسها منبهرة.

جوابها جعلني أفكر بيني وبين نفسي، إنَّ استمرار

الحديث سوف يضعني في مأزق اللغة، لأنّي لا أُتقن الفرنسية جيداً، أعرف القليل التي تخصُّ أداء عملي.

- شكراً لك سيدتي، كانت إجابتي توحي لها بأنَّني لا أعرف اسمها.
- اسمي شارلوت، أردفتْ تفضحُك تجاعيد التعب، لا داعي للابتسامة الزائفة؛ فعيناك تحمل حزناً عميقاً، مِن أين أنت؟
- صراحة لم أفهم الكثير مما تفضلتِ به، لكنّ أنا مِن العراق.
- من العراق؟! بوجهٍ متعجب سألت!
- نعم، ماذا عنكِ سيدة شارلوت؟

راحت تفرغ ما بداخلها بلهجةٍ عربية هذه المرة.

- سأثير شجونك أنا عراقية، كنت أقصد بكلامي أنَّ حزنك تعتليه علامات الاستفهام. كانت بطريقة ما قد اكتشفت تلك الابتسامات الزائفة على وجهي، فبمجرد إن عرفتُ أنّي من بلدها اعتصرَ قلبها عندما نطقت كلمة العراق، تناثرت كأوراق الخريف لحظة انطلاق الريح التي طردتني من هناك إلى هنا، أركض في سراب أُلاحقه بالحقيقة ويلاحقني بالأحبة لكنَّه خطير وخبيث، لا أجد فيه وجوه العزيزين كاملة، خبيث بحجب وجوه أعرفها من رائحة الأجساد الزكية كعطور

باريس لا تجدني أضيع عطر أمي وأختي ولا العائلة التي تركض كثيراً في أحلامي التي تكاد أن تنتهي بها ذخيرة الأعداد، فهم يتساقطون كثيراً واحداً تلو الاخر إذ إنَّ أبي في الآونة الأخيرة لا ألاحظه كثيراً بدأ ينجلي، ولم يتبقَّ منه إلا صوته الذي أسمعه من شخص اخر غير مألوف الملامح ربما هو ملك الموت أو شيطان ما، لا أعلم من يصيحني؟! تأخذني الحيرة في وصفه ربما هو الوطن ينادي من بعيد، وطن لا يمكنني أن أرسمه هنا، لا بأرض تشبهه، ولا بتلك الشوارع المتربة، ولا بهذا الهدوء الساكن حيث إن مدينتي تضج بالأطفال والصراخ وبكاء لا يختلف عليه اثنان، إما شهيد يتألمون من أجله، أو عزيز ضحية انفجار إرهابي، لا يمكنني أن أرسم تلك الشوارع الممتلئة بالقذارة والمهملات، لا يمكنني أن أتخيلها بهذه الشوارع النظيفة كمرآة أرى بها نفسي ولا بالمشردين والمرتزقة الذين يملؤون الأرصفة لا بالأشخاص الذين يبحثون عن عمل شريف، هنا أيّ فردٍ يمكنه الحصول على حقوقه، والمثير بالموضوع لا أجد إعلاناً واحداً عن مقتل فتاةٍ ما بسبب قضية شرف (غسل العار)، الفتاة هنا والنساء أهم من الرجل، هناك شيءٌ واحدٌ وجدته

بكثرة وهو حضنٌ كأوروبا سند للاجئين بالحنين، وهو يقدم لهم كتفاً على طبق من الإنسانية، وطن مثل أمي التي تربت على رأسي حتى أغلق عيوني وأصبح بيوم هادئ بلا كوابيس مجتمعي العنيفة، فقط أشياء جميلة تنثر كبذور في تربة صالحة للزراعة، كسائحٍ مترفٍ يطلق الطعام على طيور تتجمّع حوله بلا خوف...

قاطعتها بعد أنْ تلعثمت بحسرتي: لهجتكِ العراقية تهذّب أُذني.

- هل أبدو عراقية بعد لهجتي السابقة هههه؟
- أبداً أبداً بهذا المظهر الفرنسي.
- من الأفضل أن أبدو كذلك.
- إذاً كلانا يفتقد الوطن والأصدقاء هنا، سيكون من الشرف معرفتكِ.
- من الشرف أنَّك عراقي، أما سمارك يفضحك.
- فرنسية بامتياز وهذا ما خدعني، سعيدٌ جداً بالتحدث بلهجتي العراقية.
- ما يزيد مكاني المفضل جمالاً وجود ابن بلدي في أحضانه.
- شكراً، أستميحكِ عذراً سيدتي، سوف أستأذن من صاحب المطعم، وأضيفك شيئاً على حسابي، بقائي سوف يعرّضني للتوبيخ...

- كرم كبير وأهل بلدي مشهورون به، سوف أعتذر لصاحب المطعم بالنيابة عنك.
- لا عليكِ لن يمانع.
- قصدك لن يخسر زبونة مثلي هههه.
- لا شك، من الغباء أن يفقد زبونة مثلكِ.

أصرَّت أنسة شارلوت بالاعتذار من صاحب المطعم، وطلبت منه أن يوفّر قليلاً من الوقت لها معي، بعد أن أخبرته بأنني صديق من بلدها أيّام الدراسة عند الطفولة والتقينا معاً صدفة، وهذه الحجّة أطلقتها أنا أيضاً على أصدقائي في العمل؛ تفادياً لأيّ إشاعة تطلق من دون إنذار مسبق...

بعد ربع ساعة عدت إلى طاولة انسة شارلوت بعد اقتناع صاحب المطعم وجرى الحديث طويلاً...

استرسلت في تلك الفينة أكشف لها عن أطلال ذلك الماضي الذي صيّرني رجلاً يطفو على أضغاث من الأحلام، يداعب الوسن عينيه ويسهو على دنياه معظم الوقت، وكم كنت حينها متردداً على ذكر بعض الأسرار التي وجدت أنَّها غير مجدية بالذكر الآن.

في حقيقة الأمر أدهشني حديث السيدة شارلوت، انصرفت ولبرهة وهي تتحدث ذهبت مخيلتي تذكرني بشوارع الوطن ومدينتي، وبدأت أرسم كل حرف تقوله وأعيد تسجيلات المواقف الواقعية التي عشناها فهذا واقع مرير جداً ومأساة لهذا الجيل، لا سيما هناك عائلتها

ولحظاتها معهم لا تختلف كثيراً عني فمازالت أمي تغازلني عبر سماعة الهاتف، ولكني أجد الأمر سخيفاً، كلمة أحبك لأمّي لا تفي بالغرض ولا تسد حجم الاشتياق، كنت أودّ أن أدخل من سماعة الهاتف وأجد نفسي أمامها وأحتضنها بشدة وأشمُّ ذلك الخمار الذي ترتديه وتلك الملابس السوداء التشاؤمية التي ترتديها، وتلاحقنا بالحزن، يبدو أنَّها عثرة وبومة مسؤولة عن هذا الوضع الذي نعتليه، قلت حسناً صبراً على الأيام حين سماع صوتها كي أجيد التمثيل متفائلاً أمامها، وربما ظناً بأنَّ مواعيد الاحتضان تناديني وتستلطفني بموعد غراميّ سيقول لي قريباً جداً ستكون والدتك أمام ناظريك، وأستنجد بنصيحة أبي الذي لطالما يرميني بكلام الشجاعة، وينتشلني كلما قربت للسقوط واضعاً عكازة خلفي، وهذا ما يجعلني أقرر الصمود، كنت أقاطعها الحديث عبر الهاتف، أمّاه قولي لـ أبي حضنك الدافئ على البيت بأكمله لا تبخل به على والدتي، وهذه الظروف ما هي إلا عورة تنجلي عند سماع أنَّ أمي بخير فحضنك العتيد يمدني بالوطن والصبر معاً فأنت الميلاد والأعياد والأوقات السعيدة.

- قالت شارلوت: يبدو أنَّنا نتزحلق فوق الذكريات.
- أجبتها: تزحلق يرمينا في بئر الاغتراب، بئر عميقة جداً لا مهرب منها.

أجابت وهي تحكّ شعرها:

- أغبى طريقة اتخذتها هي الهروب رغم أنَّ لا بديل لها.

هممت أن أخبرها عن عالم سوداوي أعيش به هذه الأيام، لقد انقضت أشهر عديدة أعود بها إلى شقتي أرغب أن أحظى بقسطٍ من الراحة أقتل به الخوف والقلق والذكريات، لطالما أجلس أمام طاولتي الجرداء التي تحمل جزءاً من كتبي التي أسعفني الوقت وأخذتها معي في رحلتي هذه، تلك الكتب التي تبصر دخان القهوة الصاعد أعلى سقف الغرفة ثم يعود كجزء مفقود من رأسي أو حرف تطاير بسبب خطأ مطبعي يخبرني أن أتفحص عينيَّ جيداً وأمسحها، فهناك نور مطل من نافذتي يحمل ضوء التفاؤل، وهواء نقي يقتل أتربة وأفكار الغرفة القديمة ليسعفني ويوقف نزيف أفكاري الملعونة التي تأكل جمجمتي وتولد فقدان الذاكرة كما تأكل تلك الشقوق التحام الجدار، وتحدث فرقاً في القوة فتلك أيام للماضي لا تحمل إضافات جديدة على صورتي المهمشة القابعة أعلى مرآة الحمام عندما كان حلمي مجموعة من الطموحات يحملها شاب داخل حقيبة سرقتها مليشيات ومجموعات نتنة درست تحت كوادر بالوعات القذارة التي لطالما كانت تطرد النجاح وتصب الظلام كفطيسة حيوان...

- حزنك فضحكَ منذ أول مرة رأيتك بها، توزع ابتسامة بعيون باكية، أرجو لك الصبر...
- أتمنى لكِ عمراً أطولَ سيدتي.
- قاربت على الأربعين لم يتبقَّ شيء على الشيخوخة،

قالت وهي تضحك بهستيريا.

بقينا جالسين لثلاث ساعات حتى خرج اخر زبون كان قد قصد المطعم، في غضون ما بقي من الوقت، كانت مستعدة للرحيل وهي تحرك حقيبتها، تلمح أنَّ الوقت متأخرٌ بعد أن أخبرتني أنَّها فوتت الحضور عن دوامها وألقت حجة بأنَّها مريضة ولا تستطيع الحضور لجمال الوقت معي...

انصرفنا بعدها إلى بيوتنا على أمل اللقاء مرة أخرى بعد أن وضعت رقمها الخلوي بجعبتي في حالة احتجت إلى شيء، وهذا ما أعطاني فاعلية بعدم الشعور بأنّي وحيد لأول مرة، عدت إلى البيت متعباً خلدت إلى النوم.

فاصل زمني

سرنا جنباً إلى جنب حيث الأشجار الخضراء من كل جانب، كثرة الزينة أجمل ما رأته الأعين حتى الآن، والدهشة تتصدر حواسي ابتداءً بسقف المكان الذي يتخلله شيء لامع كاللؤلؤ والجواهر، وأدناه حيث اليابسة تحتوي الأنهار تجري بأنواع عديدة من العسل، اللبن، والخمر، نجري مع اتجاه صوت سريان الأنهر، يداً بيد عُراة لا شيء يستر عورتنا محدقين في دهشة هذه الألوان الكثيرة من الفواكه التي تجعلنا نتآكل حيرة عن أسماء هذه الأشكال الهندسية، وكل منّا يخبر الآخر ويسأل: هل هي لنا؟ كل منّا يهمس في أُذن الآخر أين نحن؟ نمشي طويلاً، بيدي كف سيدة تدفعني كمجذاف نحو الهاوية بلا خارطة تخبرنا إلى أين؟ سيدة من النساء التي تحدّق بي كما لو أنَّها تريد أن تعرف ماذا يحصل؟ وتتساءل وتطبطب على كتفي وتقول ما هذا النعيم؟ تحدق بي كما لو أنَّ سؤالها يقول: لمن هذا كله؟ سؤال لا أعرف الإجابة عنه مطلقاً يشبه تلك الالتفاتات التي أدور بها حول نفسي، متناثرة حول المكان كله، أما التفاتتي الأخيرة كانت نحو جسدها البرونزي الذي يحملني كأرجوحة، جسد لذيذ يدفعني إلى النظر عشرات المرات نحو هذه التفاصيل، ابتدأت بعيون لا أعرف لونها ماذا يسمى! أما

شعرها الأسود حريري يتهدل نحو جبينها، وأتفقد بلمحة غير معنية التلميح نحو جسدها أقارن الاختلافات بيننا وأنظر لنفسي بعدم مقبولية نحو أنفي الذي يخرج حاداً مستغرباً لما هو هكذا طويل ومستقيم! وكل منّا ينظر إلى جسد الآخر لكننا نعرف أنَّ أماكن عوراتنا فيها شيء يحتوي الخجل، كأن كلاً منا يشعر بريبةٍ نحو صدمة فزّاعة مخيفة تظهر فجأة أمام وجوهنا، تخبرنا أنْ نغطي هذه العورات بسبب ارتفاع مستوى التحديق، بعد ذلك توقفنا ومرر كلٌ منا جسده على الأرض مستسلمين للتعب.

قلت لها:

- الدهشة لا تسع طاقتي حول هذا المكان.
- تردد بأُذني لكنَّه جميل...

أعددت ردها مثيراً ومناورةً ساخنة حيث الأجواء باردة.

تكمل قائلة وهي تلف وجهها مرددة في كل اتجاه: إلى أين يمضي هذا المكان؟

هكذا جواب يحتاج مني الكثير من الأسئلة ليتساقط ردٌّ نموذجي مقنع لكنَّه صعب، صعوبته لا تأتي باختيار جواب من بين أمرين، ولكان من السهولة لو كان مثلاً الاختيار بين الوحدة أو الموت! فلا سبيل في ذلك ولا عذر قد يوجد في طوفان شائعات قد سمعتها من قبل أشخاص قبلي لتسهيل المأزق هذا.

اقتربنا من بعض متأبطاً أحدنا ذراع الآخر، ثم وقفت.

قلت: ليمضي إلى حيث يشاء هيّا بنا...

أكملنا طريقنا بعد ذلك بطريق طويل من النخيل المتراصفة، إلى أن استوقفتنا شجرة للتفاح جميلة جداً تجذبنا لخلل قد لا نتحمّل عقباته، خلل يجعل إبليس والشياطين تتراقص فرحاً بقدوم حفلة تحتوي العديد من الذنوب التي تجعلهم يصفقون صراخاً من الضحك والاستهزاء، مرددين لنا بكم من الأصوات يصرخ في وجهينا كلمة (إنها لذيذة).

اقتربت هي أولاً من تلك الشجرة وأخذت بنصيحة وسواس صدى المكان، صرخت بها لا، لا، لا، لا تقتربي منها!

- ماذا هناك؟
- لا تأكلي منها أرجوكِ.
- لماذا؟
- لا أشعر أنَّها الشجرة المناسبة لسدّ جوعنا لنذهب...

لم تنصت لنصيحتي وإذا بها تأكل حتى دمعت عيناها مستسلمة لكثرة المناداة التي تخبرها بأنَّها لذيذة إلى الحد الذي أشعرها بالهذيان، إلى الحد الذي ينتابها شعور بعدم الاكتفاء، وهي تمضغ الكثير حتى اللقمة الأخيرة التي شعرت وأنَّها حشرت في أعلى مجرى بلعومها وإذا بها تسقط.

كان وقوعها قوياً ومدوياً، وأنا أتلمّس يديها البرونزية، مسحت وجهها بعد أن رميتها في قبلة أخيرة مبللة، وهي تنتزع أطراف أصابعي محلقة عالياً، بدت تتبخر بملامح

أخيرة شاحبة، صرخت بها تعالي، ورفعت نفسي للحاق بها، ركضت باتجاه اختفائها، أصوات تنفسي تصرخ تكاد جعل قلبي ينفجر، خطوات طويلة كدت أصل، تعرقلت بحافة صخرة مرتفعة وسقطت كانت صرختي الكبيرة تنادي لا.. استيقظت وجدت نفسي أسقط من السرير مفزوعاً والعرق يبلل وجهي من الخوف! يا للهول أنا بخير، اتّضح لي أنَّها سراب وما حدث ما هو إلا حلم لعين...

استيقظت ساعة الفجر كمن شرب جرعة دواء منتهية الصلاحية، أو تناول عشاءً مسموماً، شيء ثقيل يسد مجاري التنفس، شيء يجعل التفكير يتخثّر ويضطرب بل يتناثر، صداع كامل، أرزح تحت مغص يصل إلى أقاصي الروح، يبدو أنَّني سأتقيأ، أخرج من عمق الكوابيس هذه كالعادة، خارجاً من صفعة ماري وهي تودعني مرة ثانية، ومن وداع تلك البرونزية، كنت أرغب بالبكاء والصراخ بهذا الحالة، كنت لا أستطيع التقدم ثلاث خطوات إلى الأمام رغبة الوصول نحو الحمام، لكن رغماً عني أتقرفص زاحفاً إلى حوض الحمام، وضعت إصبعي في حلقي ضغطت بنهايته على بلعومي، كنت أختنق، دموعي تهطل كمن سمع خبر وفاة والدته، أتمنى التخلص من هذا القرف وجرثومة جسدي اللعين، الجثة القابعة تحت لعنة الذكريات بالكاد وصلت إلى هاتفي اتصلت بشارلوت، انتظرتها حتى وصلت بعد نصف ساعة لبعد المسافة بيني وبينها، شقتي في الطابق الثالث.

وصلت شارلوت قالت مفزوعة:

- أنت مريض موت، أخذتني إلى المستشفى، قال لي الطبيب بأنني لا أعاني من شيء، أخبرنا بأنَّ كل الفحوصات لا تدل على أعراض مرض ما، لعلّ حالتك نفسية لا أكثر... أجبتُ بكبرياء وكأني وجهت له صفعةً وركلت شهادةَ الطب بعيداً، لا أبداً، لا أعاني شيئاً، أنا بخير، خرجت من المشفى بعد إلحاح الطبيب أنْ أرقد هذا اليوم لكن دون جدوى، ربما لأنّي أكره رائحة المستشفيات، بعد ذلك أخذتني شارلوت إلى شقتي وبقيت معي حتى العصر، قالت لي بأنَّني أحتاج إلى الراحة، وروتين مغاير لعودة آدم الأصلي، هناك طوفان من الحزن لديك يولد الخراب في نفسيتك، كانت تتحدث بإطناب كما أظن حتى بدأت أشعر بالغثيان، أغفو من جديد وأتمنى أن لا أصحو..

في اليوم التالي كان وضعي أقل سوءاً عن الأمس، زارتني صباحاً شارلوت وهي تتفقد حالتي.

- يمكنني أن أسألك وتجيب بصراحة؟
- تفضّلي.
- لماذا أنت حزين، شعرٌ غير مرتب وذقن مرتفع وعيون تصرخ ساعدوني؟!
- لأكون صريحاً، تلك الحوادث خلّفت خراباً في أعماقي.

- لـكلٍّ منّـا ملحمـة نفسـية، لكـن الحيـاة جميلـة لا تتوقـف على لوحة سوداء...
- أتمنـى أن يكـون كلامـكِ شـارةً أمسـك بهـا طـرف أمـل معلّق للتغيير لكن لا أظن، قلتها وأنا أتنهد.
- ماذا تقصد؟
- فقدتُ قيمتي يا آنسة شارلوت، كرهت ذاتي، ما وصلت له عائلتي من ألمٍ بسببي، يعانون مخلّفات أخطائي.
- لكلِّ حزنٍ نهاية لنبدأ معاً من جديد يا آدم.

كان عليّ إخبارها المزيد، أشعلت سيجارتي وأخذت نفساً عميقاً ونفخت بعيداً، حلَّ صمت قصير، أنهيت سيجارتي لأكمل ما بدأته من ثرثرة عن حياة رجل يستيقظ كثيراً أثناء الليل، غير متزن دون تركيز يشعر بقلق مستمر، ومزاج سيءٍ، من دون مقدمات غضب من شخص عصبي نحو شخص هادِئ، يجعلني أفقد احترامي، أعتقد أنَّ الحياة هذه، ليست سعيدة، أتظنين أنَّ هناك سبباً يجعلني أبتسم وأبتهج!؟

- لما هذا اليأس، هناك شخص بداخلك يقدّم لك أفكاراً سلبية؟
- لا أعتقد، لكنني بلا طاقة، فكرت بالانتحار كثيراً وأظن أنَّ الموت فكرة جيدة للتخلّص من هذا البؤس.
- تجعل من الحبة كُبة، تخلق أسباباً تولد التعاسة،

يفضّل أنّ تجرِّب الحب...

- الحب! تمزحين بالتأكيد، الحظ العاثر في رحلتي كان الحب، أخذتُ حصتي منه وخسرت.
- هل يمكنني مساعدتك وتتقبل كلامي بكل روح رياضية؟
- تفضلي
- جرب العلاج النفسي.
- من قال لكِ أنني مجنون سيدة شارلوت؟
- آدم أعلم أنَّك شخص مثقف لكنك تمر بفترة سيئة، لا أقصد الإهانة، أردفت أنا أحد الأشخاص الذين جربوا العلاج النفسي، ستكون بخير صدقني، تقبّل طلبي بعقلانية.
- لا أظنها فكرة جيدة، أعتذر.
- يحتاج أن تطهر نفسك الآن ستكون على حقيقتك قريباً، خذ هذا كارت لصديقة يمكنها مساعدتك.
- لنفترض وافقت، كيف يمكنني دفع الفواتير؟ لا يمكنني تغطية تكاليف العلاج.
- لا عليك، التكاليف مدفوعة، بشرط استرجاعها عندما تكون بدخلٍ مادّي جيد.
- سأفكّر بالموضوع، شكراً لمعروفك.

تركتني أفكر وانصرفت، جلست مترنحاً على كرسي قديم أتصفح هاتفي الحزين الذي يحمل ابتسامة عائلتي

فـي الصـور وبعـض عناويـن وطننـا العربـي الجريـح! هاتـف صغيـر بـذكاء لعيـن، يبصـق مصمـم هـذا الجهـاز تلـك التكنولوجيـا أمـام أعيننـا وتتغلّب علينـا حيث تتلاعب بنـا!! تتلاعـب وتفـرز هنـا وهنـاك خبـراً مفرحـاً وآخـر حزينـاً، يـا للهـول كيـف لهـذه التفاصيـل أنْ تصـل بهـذه السـرعة أمـام نظراتـي لشاشـة عاجـزة مثـلاً أن تـأكل أو تحتسـي مشـروباً لكنَّهـا تعـرض الصـوت والصـورة معـاً، وأنـا أمسـك قلمـاً وورقـة أكتـب قليـلاً ثـم أمسـح، أفتقـد أن أكتـب أحداثـاً سـعيدة كمـا فـي دراميـة القصـص وكلاسـيكية التفاصيـل، هنـا تسـرق التكنولوجيـا العنوانيـن الورقيـة فـي المجـلات! كم يبـدو هـذا غريبـاً عندمـا تنتهـي مسـيرة الجرائـد وكل هـؤلاء المترقبيـن لتلـك العناويـن الانفجاريـة الملونـة والمزخرفـة رغـم أن بعـض عناوينهـا داميـة، مـع ذلـك كان وصولهـا باليـد لـه طعـم آخـر، هنـا تسـرق التكنولوجيـا الحـب الـذي يحملـه طائـر محمّـل بالمشـاعر والمشـكلات والخطـط لكنَّهـا تكنولوجيـا سـهّلت نقـل الحقائـق بالثوانـي، لكنّـي شـخصٌ ماكـر قـررَ فتـحَ شاشـة الهاتـف، اتصلـت فيديويـاً بعائلتـي، كنـت أمثّـل أنَّنـي سـعيد، وأقذفهـم بالنـكات وأرسـم درامـة بواقـع جمالـي رافعـاً رأسـي إلـى الأعلـى وأردد دعاء(اللهـم احفـظ لـي أهلـي)، بعـد ذلـك يسـتمر الحديـث والخـط مفتـوح حتـى سـماع والدتـي صـوت شـخير ولدهـا المتعـب بعيـداً عـن إيصالـي كلمـة وداعـاً؛ لأنّـي أكـره الـوداع...

فـي اليـوم التالـي اسـتيقظت علـى تفكيـر عميـق بفكـرة

العلاج لدى الطبيب النفسي الذي جعلني أفكر بكيفية الخلاص من هذا الواقع المزري، ماسكاً كراساً جديد ليومياتي اللعينة في باريس وأعود إلى الكتابة أسطّر جرحاً من الحنين على شكل نص أخاطب به الراحلين الذين وجدتهم كوابيسَ في أحلامي إذا ما عدت لآخر حلم حيث التقيت به ماري تلك الحبيبة التي قد تكون الآن حبيبة أحدهم، وقد أكون مخطئاً مجدداً، وربما ترتدي الأماكن التي زرناها معاً مع شخص آخر لكنه ليس مسلوباً مثلي من رائحة تلك الفتاة التي لا تفكر بمجنون يدعى آدم، يلتقي بالمجانين ويسألهم عنها علَّه يجد إجابة من لسانهم قد يدلّه بها أحدهم على فتاة تمتلك الملامح نفسها، فنصيحة المجانين ثمينة أَلَا يقال (خذ الحكمة من أفواه المجانين)، وأطلق العنان وأمضي باحثاً عن مرمى لأسدد به حسراتي التي ربما سترتطم بشخص يبكي أو شخص مفضوح بالحزن مثلي يحاول التخلص من الأسئلة ولا يجد أجوبة لتلك الحوادث المرورية والخراب الذي يحدث داخلنا، فربما هناك شرطي مرور يصلحها.

جلست طويلاً، أخيراً هناك شيءٌ من الإقناع للذهاب إلى تلك الطبيبة النفسية التي نصحتني بها السيدة شارلوت، ووضعت في حضني كارد يحمل عنوانها ورقمها الخاص، بعد التخلص من التردد رفعت هاتفي في هذا اليوم الذي تخاذلت به بعد أن أخبرت ربَّ عملي أنَّي متعب وأحتاج إلى استراحة لأعود إلى نشاطي الذي قد يعود

عندما أستمع لنصيحة توجهني إلى عنوان ربما سينقذني من هلوستي وتخبطي ومزاجيتي وعنفواني الداخلي..

ارتديت ملابسي وانطلقت إلى عنوان المكان الذي تقصده آنسة شارلوت، دخلت إلى مكتب الاستشارية، التقيت بسيدة تبدو أنها في مطلع الأربعين تستقبلني بحفاوة! كم كان يبدو غريباً أن تدخل غرفة لم تدخلها من قبل لتتكلم مع شخص لا يعرف عنك شيئاً، ولم تسمع به مسبقاً لتقابله للمرة الأولى وتفرغ كل ما لديك أمامه بعزيمة وإصرار على أمل أن لا تنسى شيئاً وتخبره عن مزاجيتك القبيحة، وتقلّبات السلوك، وعدم رغبتك بالحياة، ومعاناتك مع خسارة ذاتك العنيفة والغاضبة، تخبرها لشخص لا يطلق أحكاماً بالإعدام بعد الانتهاء بسبب هذه الجرائم النفسية، التي قد تؤدي إلى جرائم حقيقية بالآخرين، دلفت تجرّني نحو الغرفة الخاصة للعلاج، غرفة ينطلق بها الضوء من جهة واحدة، أما الزوايا الأخرى ترتوي ضوءاً ضعيفاً خافتاً جداً كأنّما الأجواء رومانسية في ليلة تعيسة، غرفة بطاولةٍ وكرسيين، كرسي لها وكرسي آخر لي، أمّا خلف كرسي الطبيبة مباشرة هناك ستارة، يبدو أنَّها حاجز عن غرفة أخرى ملاصقة لها...

مرحباً آدم، هل لك أن تتفضل بالجلوس؟

جلست بهدوء...

أنا دكتورة روز المناوبة في الطب النفسي لفترة ما بعد

الظهيرة، تلقيت اتصالاً اليوم من قبل سيدة شارلوت، لقد علمت أنَّ الأمور معك لا تسير بخير، وأنَّك مررت بفترة صعبة لذلك أعتقد أنَّ صديقتك رأت أنَّه من الأفضل لك أن تناقش الأمر معي لمساعدتك ما هو رأيك؟

نعم، سيكون مناسباً دكتورة روز.

هل يمكنك إذن أن تخبرني بما تمرّ به؟

ارتبكتُ وصرتُ أعصر يداً بيد، وأرفع شعري، وأطقطق أحدَ أصابعي وأُجيب.

نعم، كما أخبرت صديقتي شارلوت معاناتي وما جلبته الغربة، أشعر أنّي فاشل خسر مستقبله حتى إنّني خسرت حبيبتي.

تقول لي: تحدّث يا آدم، أسمعك.

نعم خسرت كل شيء؛ مستقبلي وعائلتي.

نعم أسمعك أكمل.

ولكن أكثر شيء يزعجني هو ندمي على تلك اللحظة التي ضربت بها ذلك المجرم، ربما كان من الأفضل لو كنت جباناً لما وصل الأمر إلى ما هو عليه، لقد خسرت ذاتي وكرهتها..

- نعم يا آدم، متى أول مرة شعرت أنَّك هكذا؟
- منذ ثلاثة شهور وأنا أشعر أنَّ هناك مَن يتحدّث معي يقول لي إنّك فاشل؟

نعم...أسمعك

يقول لي أيضاً إنّك خسرت كل شيء ويعطيني فكرة الانتحار.

- إذن هذه الفكرة منذ ثلاث شهور وأنت بهذه الحال؟
- نعم هذه الأفكار وهذا الشخص يخبرني بها منذ أول يوم وخاصّة ليلاً وقت نومي...
- حسناً، هل يمكنني أن أسألك سؤالاً؟
- نعم تفضلي؟
- هل تظن أنَّ الشخص الذي داخل رأسك مَن يجعلك هكذا تعيساً وجعل حالتك هكذا؟
- نعم أتصوّر أنَّه مَن خَلق المشكلات هذه، أنا لم أتعمّد شيئاً، كانت حياتي طبيعية رغم الأخطاء التي خلّفتها ورائي لكن سرعان ما بدأ بالتواجد أصبحت شخصاً آخر.
- نعم يبدو هذا وضعاً صعباً عليك، إذاً كيف تتعامل مع هكذا وضع وكيف يؤثر عليك؟
- حسناً، لقد أصبحت منعزلاً ولا أغادر غرفتي ما عدا وقت عملي؛ لأنّي أحتاج المال...
- نعم يا آدم، وهل تناولت أيَّاً من الحبوب أو العلاج للتخلّص من هذا؟
- نعم، أخذت العديد من الحبوب والمهدِّئات آخر فترة للتخلص من وضعي هذا...
- حسناً، هل تعتقد أنَّه يمكنني مساعدتك؟ للتخلص من كل ما تمر به.

- لا أعلم، لكن أتمنى أن ينتهي هذا وأرجع إلى طبيعتي..
- حسناً يا صديقي، لنعمل معاً على أن تكون بخير. اتفقنا؟
- حسناً.. اتفقنا..

استمرت زيارتي للعلاج لفترة ما بين (٧_٩) أسابيع في عيادة الطبيب النفسي في جلسات تحسين السلوك وبعض علاجات الاكتئاب بعد تشخيص الأعراض ودرجة حدّتها، مع الأخذ بعين الاعتبار علاجاً ملائماً للحالة، وكان للتعاون والعمل المشترك دورٌ فعّال في علاجي، وبعد مشوارٍ طويل مع العلاجات تحسّنت حالتي وأصبحت بخير، ربحت نفسي واستجمعت قوتي وتخلّصت من ذلك الشخص الفاشل بداخلي، كانت تجربة قاسية بحياتي وذكرى في مخيلتي ولا زلت أذكر ذلك الخجل الذي جاء ردة فعل لما تربينا عليه بفكرة أنَّ مَن يطرق باب العلاج النفسي هو مجنون، وهذا غباء بحد ذاته لأنّي علمت حينها أنَّ الأمراض النفسية ليست وصمة عار، وأنَّ فكرة آنسة شارلوت كانت فكرة منقذة لي، ربحت بها وطني الأصلي إلى أنْ جاء موعد الزيارة الأخيرة فكانت الأصدق والأشجع بربحي لهذه المعركة وجرى الحديث...

- هذا يومك الأخير هنا يا آدم يبدو أنَّك على ما يرام الآن؟ ماذا ستفعل الآن؟
- سأعود إلى حياتي الطبيعية مع بكاء من الفرح...

- شكراً لك، شكراً.
- لا تشكرني اشكر (دلال).
- ماذا! علامات الاستغراب على وجهي تطحن تجاعيد الشك؟
- من دلال هذه سيدة روز؟
- أقصد دكتورة شارلوت أناديها دلال أحياناً باسمها الذي كانوا يطلقونه عليها في بلدها أنا أحبه وهي لا تفضله...
- هل أنتِ تمزحين؟ ماذا عنك ألم تكوني أنتِ من تعالجيني!
- فعلاً أنا من كنت أمامك وأساعدك لكن من كانت تطرح الأسئلة وتوصف العلاج دكتورة شارلوت، كانت خلف الستارة هي من تضع وتطرح كل شيء؟
- لا أصدق، كأنَّها خدعة منكما هههههه أخبريني أنتِ تمزحين أليس كذلك!؟
- صدقني هذا ما حدث، كانت فكرة شارلوت أن يكون علاجك بطريقة غير مباشرة خوفاً من أن تتهرّب عندما تعلم أنَّها من سوف تعالجك وتكابر.
- لو كانت أخبرتني لما رفضت سيدة روز!
- الفضل يرجع لها الآن، وكان الأهم علاجك بأيّ طريقة،

وبالمناسبة أنا لست مؤهّلة لعلاجك، لا زلت مرشدة نفسية أعمل في إحدى المستشفيات وأدرس وأحضر للحصول على شهادة أكاديمية عليا في مجال الطب النفسي.

- شكراً جزيلاً، كان لك دور مهم في علاجي دكتورة روز.
- شكراً لك أيضاً؛ لأنك كنت شخصاً قوياً ومتعاوناً، وكما ذكرت الشكر العظيم للدكتورة شارلوت.. سعيدة أنَّك بخير الآن..

عدت إلى سكني واتكأت على سريري، أفكر كثيراً حول دكتورة شارلوت وماذا وجدت في آدم لتقدّم له هذه المساعدة الكبيرة وعلى نفقتها الخاصّة، ماذا وجدت في هذا الكائن المهمّش الذي لم يتمكن على أن يتخطى صعابه، ولم يتجرأ أن يمرر تلك الذكريات صوب سلّة المهملات التي تحتفل بانكساراته، كلما ظن أنَّه يخطو جيداً تاه في طريق وعر ممتلئ بالصخور والتعرّجات التي تسقطه بعيداً، ليسلك معها اتجاهاً خاطئاً كما بداياته التي يخشى أن تكون نهاياته شبيهة بها تماماً، التي لا تختلف كثيراً عن السكوت في لحظة اجتماع الخرسان لحلٍّ طامة ما تحتاج على الأقل صرخة تعبّر عن الكثير ولا تختلف عن وداع مليء بالرحيل لا يعطي خيارات كثيرة لتفادي ما يحدث.

في صباح اليوم التالي أصحو متوتراً جرّاء هذه الأفكار

ومجموعة الأسئلة التي تراودني حول دكتورة شارلوت، أخذت هاتفي واتصلت.

- مرحباً دكتورة دلال أقصد شارلوت.
- هههههه، من أخبرك بالاسم دلال؟
- سأخبركِ بكلِّ شيء لاحقاً، يمكنني أن أدعوك على فنجان قهوة صحيح؟
- حسناً لن أتردد سأكون في حديقة (نيلسون مانديلا) نلتقي هناك الساعة الثانية ظهراً.

اقتربت الساعة على الثامنة صباحاً، أخذت أرتدي ملابسي وأذهب مسرعاً.

وصلت إلى المكان وإذا بدكتورة شارلوت تصل قبلي! صدّقوني على كل حال «إذا وجدتُم امرأة تسبق مواعيدكم فهي تهتم لأمركم كأمهاتكم»

كانت تجلس متوترة على غير العادة تكسر نمطية هدوئها الذي أحسدها عليه سابقاً، فلطالما كنت معجباً بمن يجيدون الهدوء رغم صخب هذه الحياة وعنفوانها.

- مرحباً دكتورة.
- أهلاً وسهلاً كنت بانتظارك مسبقاً، قالت مبتسمة.

قمت بجلب فنجانين من القهوة في طريقي وارتشفنا حتى عاد شيء من هدوئها المعتاد، جلست وهي تحدق في عيني وتحتسي قهوتها، بينما أسرح في تلك الملامح وتلك السيدة المثيرة وأفكّر ربما من الأفضل أن تسعفني

قارئة فنجان من أحد المارة، ها هي شارلوت ستنتهي من ارتشاف قهوتها، دون أن تنبس ببنت شفة، كلانا يتراشق النظرات وإذا بي أقدّم لها منديلاً لتزيل بعضاً مما تبقى على شفتيها من بقايا القهوة تزيل به أحمر الشفاه لوناً ورديا صاخباً يعزف حفلة طرب في داخلي، صمت قصير ثم قالت:

- أرى أنَّك لم تنتهِ من قهوتك؟
- لقد اكتفيت منها فأمامي حبّة حلوة تكفي.
- شكراً على هذا الإطراء مع ابتسامة تحمل الخجل.
- هل يمكنني أنْ أكون قاسياً أو ناكر جميل؟!
- لا تبدو كذلك لكن جرب، قالت بألفة.
- ألومكِ عن عدم إخباري بأنَّكِ مِن سوف يُعالجني..
- لو أخبرتك أحجمت، وممكن جداً أنْ تتهرَّب وتخبرني بأنكَ بخير.
- حسناً، لماذا تساعديني بهذا الشكل!!
- لأنّي أرى بك العراق، طفولتي، معاناتي.
- لماذا تعامليني بهذا السلوك وكأني طفلك؟
- هذا لأننا في الظن نفسه والنقاء. ترى هل تتوقع أنَّ لقاءنا صدفة؟
- لا أتوقع أنَّ صدفةً تخلق كلَّ هذه الأحداث، ربما أنت رسالة من الرب، هدية أفعالي الحسنة والقليلة.

انتهى الحديث بالإقناع بعد مكوثنا الطويل في المكان وعدنا إلى أسرّتنا...

بعد أن استمرت لقاءاتنا الافتراضية

باحت شارلوت بأسرارها وتفاصيل هروبها من منزل زوجها، ذاك الزوج في البيت الذي يحمل الكثير من الأسرار والوحشية، زوجها المِثلي الذي جعلها تفقد شعورها بأنَّها أنثى تملك مفاتن تبرز فصال الجنس اللطيف، وتفقد نشوة الشعور بأنَّها على موعد على الإنجاب أو تتخيل حمل رضيعها الأول، لكن الرب كريم جداً فلم يجعلها سجينةً لدى حيوان يدَّعي بأنَّه من جنس البشر ويعاملها كمومسٍ بعرضها كسلعةٍ لأصدقائه، وهو يقدّم لهم (دلال) على طبقٍ من العُهر مقابلَ أنْ يمارس الرذيلة، وذاك الانحراف الذي يجعلني لا أقسى وأقول بأنَّه انحراف أخلاقي، ربما يكون خللاً هرمونياً كما أسمع، لا أعلم، لكنَّه في الأخير انحرافٌ شاذ، إضافة إلى أنَّه كائن لا يمتلك من الشرف ذرة، وهو يقدم زوجته يومياً على مجموعة من الوحوش ولأشهر عدة إلى أن فارقت ذاك المنزل والبلد برحيل غير مرجو من أعماقها، لكنَّها تعلم بأنَّها تمتلك عائلة وأباً يرجع كثيراً إلى التقاليد القبلية ويعد حرية المرأة عورة، وأنَّ المرأة حبيسة قوانين الزوج، وإعلان العنف متاح في مخيلة تلك الطبقة الفقيرة ثقافياً، كانت دلال أو كما أحب مناداتها (شارلوت) تتحدث بحريةٍ وهي تروي قصتها، شعرت حينها كأنَّما حساسية في جسمي تأكل جِلدي وأصابعي احتراقاً على

ما حدث بها، ولا أجد أيَّ تعبيرٍ كافٍ لمواساتها، لم أستسغ أن أراها بهذه الحالة، بكاء طويل ازداد به نشيجها امتد حتى الطرف العلوي من ملابسها متبلّلا، كنت أحدّق بتلك العيون تبكي بصدق وألم، والأخير أنا منصدم يبوح لها أيضاً كيف كانت حياته وكيف تخلّص من تلك المجموعة التي تتحكم بالوطن بِاسم السلطة، مليشيا قذرة أردته هارباً خارج حدود الوطن تاركاً مستقبله الذي يرسمه في حياته الجامعيّة جالباً شهادة التخرّج ليزف خبرها على والديه ويكمل تدرج طموحاته، لكن شاءت الظروف أن يحدث ما حدث، حينها قررت أن أخبرها عن علاقة الحب التي كانت مقدسة بالنسبة لي مع تفاصيلها وكيف فشلت؟

تعالت حسراتنا وفرز كل منا ما حدث معه أمام الآخر، ليعرف كلانا بتفاصيل الآخر.

أحببت وجود دكتورة دلال في حياتي، وأصبحت متعلّقاً بمحادثاتها صباحاً ومساءً، كنّا نتبادل الاتصال والرسائل، نتحدث طويلاً ونثمل في أصوات بعض، اقتربنا من بعض أكثر وبدأت تظهر اثار الغيرة بنبرة صوتي، بدأت تظهر علامات تعلّقي بها حينما أرميها بكلمات الغزل لا تعرف ماذا تجيب منطفئة بالخجل، لكني أعرف جيداً أنَّ سيدة مثل شارلوت تستحق الحب، مَن خلّصتني من امرأة تُدعى ماري تستحق الحب الذي كان ينطلق بإفراط نحو الاتجاه الخاطئ، فأنا الآن في الاتجاه الصحيح ومشاعري بأمان مع هذا الملاك...

في السابع من أيلول في ليلة يشتد بي الحنين إلى تفاصيل تحتوي على شارلوت، أتفقّد سريري عشرات المرات إن كان يحتوي على أيِّ شيء منها، لربما صورة منسية أو حاجات حقيبتها الثمينة، أبحثُ علّني ألتمس لها شيئاً في صندوق الملابس، ربما هناك أحمر شفاه في إحدى ملابسي التصق سراً في أحد الجاكيتات أو قد يحتوي تلك البقع السوداء من كحل العيون، يرسم تأشيرة في إحدى أشيائي أو عطرها الذي يأسرني، أبحث كثيراً وهذه المرة في أحدى الرسائل التي قد أجد بها كلمات الغزل التي تجعلني أحلّق فرحاً كشعور استراحة المقاتل لحظة القتال، محاولتي الأخيرة رحت أتأمل وأتذكر اتصالها وصوتها وحركاتها الطفولية التي تخرج عن غير المألوف عن كونها طبيبة لتهذيب السلوك، بل كانت طفلة تبحث في كونها امرأة لا تحتاج أن يستأذن رجل في أن يكتشف قيمة الألعاب التي تفقدها الأطفال وما هي تأثيرها عند الكبر، دون التفكير من سيفكّ هذا اللغز، لكنَّها تعلم مَن يفكّ هذه الشيفرة محظوظ جداً أنْ يربح امرأتين، واحدة تنبجسُ من الأصلية، الأولى امرأة قوية مستبدة تخلّف وراءها رجلاً عظيماً، والثانية طفلة تكفيه مدّة طويلة عن الاستغناء عن دلع الأطفال ومداعبتهم، فهي تغنيه عن كلِّ التفاصيل الصبيانيّة والأنوثة والرومانسية، هذه الأفكار شوقتني جعلتني أقفز سريعاً، وأنتقل إلى نافذتي أمسك هاتفي وأتصل لأخبرها أنَّني اشتقت لها

وكم عليّ أن أطرق باب إحساسك لتفتحي قلبك!! وأرسم بيوم الغد لقاءً ولو قصيراً يمتدّ بقبلة طويلة لفتاة متوازنة عاطفياً، لا أشك أنَّها تفكّر أيضاً بقبلةٍ ما، لكن أظنُّ أنَّ هناك تأثيراً كبيراً من شيطان يطلب التوبة لا يجعلها تجازف، في نهاية الاتصال اتفقنا أن نلتقي في اليوم التالي في منزلها، كانت دعوة على وجبةٍ صباحية، على أمل أن أخبرها بما في قلبي...

في اليوم التالي كان صبيحة يوم الاثنين، لم أخضع لحنّية السرير والتأخر بالنهوض كما الأيام السابقة، قمت بأخذ حمام، ثم ارتديت ملابسي، وانطلقت متوجهاً نحو سكن دلال أو كما أحب أن أناديها (شارلوت)، كانت المرّة الأولى التي أذهب فيها إلى حيث تسكن، مكان أعرف أنَّنا سنكون فيه لوحدنا دون جاسوس أو مراقبة من متطفّلٍ ما وهذا ما أتمناه.

وصلت حينها إلى شقتها القابعة أعلى البناية، صعدت إلى منتصف السلّم، ثم توقفت فجأة أفكر كيف ستنتهي خطواتي البعيدة للوصول إلى باب شقتها، حينها تُوهم لي أيضاً أنَّ مَن لديه نيّة أنْ يرتكب جريمةً ما سيفكر بكلّ مجريات تفاصيل الخطّة، بينما هو يصعد سلّم البناية هذا، عدت أكمل خطواتي، قرعت الباب وإذا بصوت ينادي من بعيد: تفضّل. انتهيت من حافته ثم دخلت، وإذا بها أقبلت ترتدي فستاناً أزرقاً قصيراً، شعرها الأسود هذه المرة يبدو قصيراً، ترفع يديها ثم تضغط على جانبي،

شعرها تشده لكي لا يقع ويتهدل على رأسها ويحجب رؤيتي، كانت الشقة جميلة وكبيرة جداً نسبة إلى شخص يقطن وحده! أدخلتني من باب المطبخ ثم تبعتها داخل ممر يؤدي إلى صالة الاستقبال، طلبت منّي أن آخذ راحتي ريثما تسخّن هي الطعام، سألتها إنْ كانت تحتاج مساعدتي، فقالت: أبداً، أنت ضيفي الآن.

ذهبت وتركتني أتمعن في أثاث الشقة الباذخ وتلك الصور المعلّقة، كانت الصورة الأولى لطفلة في فترة الرضاعة في الأسود والأبيض، تراصفها صورة أخرى لطفلة في الخامسة من عمرها، أما الصورة الأخيرة لفتاة يبدو أنَّها تبلغ المراهقة آنذاك، فكّرت وأنا أنتظرها بأنَّ هذه ذكريات الماضي تعلّق على الحائط، عادت بعد عشر دقائق تحمل الصحون بين يديها وفوقها الشوك، وضعت ما تحمل في زاوية الطاولة، قفزت ورتّبت معها الصحون أمام الكراسي الثلاثة، اتّضح أنها طباخة ماهرة نسبة إلى شخص تعود ارتياد المطاعم فمدحتها بإفراط كما أفعل مع والدتي حتى اكتشفت ذلك وقتلته بالخجل، كانت وجبة خفيفة، بينما أنا لدي شعور قد يبدو هضمه ثقيلاً خطوتين إلى الأمام وإذا بي أتعثر بها...

- آسف جدًا شارلوت...

- أبداً إنَّه خطأي وتبتسم.

بدأت نظراتها تتحرك نحو مشغل الموسيقى تعبث بأزراره، وتضع أغنية هادئة تضمّ المكان بالطمأنينة.

ثم عادت لإكمال وجبتها، بدأنا بالتهام ما موجود على المائدة، أمام نظراتها التي اختلج منها قلبي، تبادلنا النظرات التي لا نضعها على الصحون، بل نتراشق بها، كانت دقات القلب تتقافز، كلٌّ منا يكاد صدره أن ينفجر باعتراف بسيط لا يكلف سوى كلمة واحدة أو أخرى للتعريف، في هذا الوقت انتهينا من الوجبة بسرعة ليتسنّى لي أن أضع كل افكاري البذيئة نحوها، فجسدها يحمل حبلاً رفيعاً يلتفُّ حول عنقها الرقيق، حبلاً ضيقاً جداً يجعل فستانها القصير يخنقني! هذا حقاً تعذيب لي.

أكثر ما جعلني أفكّر بينما أنا ذاهب لأغسل يدي قرب الحمام هو وجود قنفة تحمل فوقها شيئاً غريباً جداً، من بعيد يبدو كأنَّه قطعة لحم بشرية، يأخذني الشك لمعرفة ما الموجود فوقها، اقتربت أكثر حاولت أن أمسكه ثم تراجعت، يا للهول!! إنَّه عضو بلاستيكي!!! مفجوعاً أعود سريعاً إلى الجلوس مع شارلوت لكي لا تشعر أنَّني أتجسسُ على محتوياتها وأصنع أعذاراً من وحي ذاتي، أخبر نفسي ربما هذا العضو البلاستيكي ليس لها، لأعود واقفاً أمامها أشم عطرها الأخّاذ لتنتبه جيداً لتجدني أمامها، تراجعت الى الخلف خوفاً من أن تتعثر مرة أخرى بي، أخذت اقترب منها مجدداً بخطوات ثقيلة جداً، أحاول أن ألتمس عذراً لأصطاد حضناً، وقد يكون تلميحاً لليلة غير كسولة أبداً ستمتلئ بالنشاط.

- ترد: لقد أخفتني.
- تباً لتحركاتي آسف.
- لا عليك يا آدم.

كانت عيونها الواسعة تمشط ملابسي وجسدي من الأعلى إلى الأسفل، كنت أخاطب نفسي ماذا أفعل؟ حين راقبت نظراتها كأنَّها تريد أنَّ تركز في ملامحي وأجد نفسي أقترب منها أكثر، أجفلت تدير وجهها عني إلى الخلف، قمت باللحاق بها، مسكت يدها، ألفها نحوي، أهمس كلمة في أذنيها بخجل، ترد ماذا!! أحاول أن أقترب منها أكثر، أضع يديَّ على عنقها وأقول لها مرة أخرى ما همسته: (في أحلامي البذيئة لم أتخيّل سيدة مثلك بهذا الإغراء وهذا الاكتمال).

برزت مضطربة تعقد حاجبيها بريبة تعجبيّة وتسألني لماذا أنت؟ وتبكي بألم وحزن عنيف، بسرعة أخذتها بأحضاني وهذا ما كنت أتمنّاه فلم تمانع، أخذت حصّتي باحتضان احتلَّ جسدها، أثناء ما حاولت أنْ أقبّلها، هلعت هاربة قائلة: لا أستطيع يا آدم افهمني!!

- أنا معجب بكِ شارلوت.
- لا لا، أرجوك، سأصاب بنوبة قلبية ابتعد!
- أنا أعي ما أقول صدقيني.
- أنا معجبة بك أيضاً لكني لا أستطيع، اخرج من منزلي أرجوك.

- لن أستطيع الذهاب دون إجابة.
- لا يمكنني أن أحبَّك وأجرحك في آن واحد.
- لماذا! سأحب نفسي أكثر إنْ أحببتِني؟!
- أعتذر، اخرج اخرج، وهي تتوسل بعيون شبه باكية تدفعني نهاية الباب!

خرجت من منزلها وهي ترميني بعلامات التعجب والاستفهام، كنت قد أنهيت علبة السجائر خلال الطريق، هنا كنت أعود لعاداتي السيئة التي أفتقد بها للذوق الرفيع حسبما تقول تلك السيدة وهي تحذّرني مراراً على إدماني غير الطبيعي، نزلت أسحق سيجارتي المتعفّنة بقدمي وتركها مقدمة السلّم، لا أعرف كيف انتهى الطريق بسرعة وأنا أصل إلى شقتي، جلست أفجّر غضبي في أثاث المنزل، شعرتُ بالهدوء بعدها وارتميت على السرير، كنت أتأمّل هذه التجارب الشخصية للتعامل مع فكرة الشعور بالوحدة التي وجدت نفسي بها شخصاً يستطيع الثبات لعدة أيام بهذا الفعل اليومي منذ أن أردَتْني شارلوت خارجاً، لكن لماذا؟ لا أعلم سبب كبريائها أو رفضها لحبّي، لكن على ما يبدو أنَّ فكرة اقترابي منها لم تعجبها مع أخذ علامات الرفض بعين النظر!! أن تقول أنا معجبة بك ولا أستطيع أنْ أحبك لماذا!؟ عقلي مشوش يحارِب الأفكار التي تخبرني أن أستمرَّ لوحدي يخاطبني عقلي بسخرية، ربما تحب شخصاً آخر، لا تلتقي بها بعد الآن، هذا الحب يجلب لك الذلة، أجيبه عليه: لا، هذا

غير صحيح (الحب يقبل الذل، لن أخسرها)

كيف أتخلص منك؟ ...

لا أعرف كيف أتاني الشوق كزائرٍ ثقيل دم مرحّب به رغم عدم تَأَهُّب المكان، هنا زار قلبي وحشٌ مفترس زاد وحشتي وتعمّق فيَّ كحاسةٍ سادسة لا تخضع لأوامري.

أدخلت رأسي داخل معطفي وأغمضت عينيَّ بيدي جُبناً أو هروباً من هذا الاحتلال الذي ترسله شارلوت! زائر يبدو أنَّه يتواطأ معها، أدركت حينها أنَّ كلَّ شيء بدأ يعود كالسابق، حزني، وحدتي، المجنون الذي يتلبسني، الممثل الذي يجيد الدور الأقرب لعزائي عندما يتعلّق الأمر بالصديق المتعاطِف، لكنّه يرسل كل تلك السبل نحو مدينة عشوائيةٍ بلا شوارع عندما تقترب من بحثك الحقيقي للنجاة.

أخذ يصرخ بصوت امرأة الآن، مِن أين يأتي هذا الصوت الصافي كمناخ باريس بعد تناول السماء خيط شمس صباحي؟ آدم؟

لا، هذه ليست شارلوت، لقد انسحبت بدون ضجيج، ربما لأنَّها اختارت أن لا تضع لي اختيارين، سهلت الرحيل دون أيّ سببٍ كافٍ لطردي، حقاً تعاطفت معي! وهي تسد ورائي كل أبواب السماء.

استمر هذا الصراع الداخلي الذي يأكل بي من الداخل، وها أنا هنا أريد أن تقطع شارلوت كل تلك الشكوك باتصال أو اعتذار قد يجعلني أركض بسرعة

مثل كلبٍ يلهث من العطش قد هرب من سجن تربيته عائداً إلى مربّيه الأصلي.

بعد أُسبوع كامل من الابتعاد، كل منا يحاول أن يبادرَ بأنْ يخبر الآخر أنَّ الاشتياق قنبلة موقوتة قد تنفجر بأيّ لحظة، خُيّل إليّ بأنَّني تذكرتُ انهزاماتي المتكررة نحو ماري سابقاً وتنازلات كنتُ أتسابق فيها عمن يتجرد فيها عن كبريائه وتنتصر بها حالاً سطوة الاشتياق، لكنني تغيّرت وبدأت أعراض الاختلاف تبان حتى على مَن غيّرتني وانتشلت آدم القديم نحو غياهب النسيان، لكن يبدو أنَّ مَن تنازلت شارلوت هذه المرة، اتصال هاتفي يجعلني أقفز من سريري، كنتُ أريد أن أرى حروف شاشة الهاتف تحتوي على اسم دلال أو بالأحرى شارلوت كما أحب، حقاً هي من تتصل...

- أعتذر يا آدم كان موقفي عنيفاً يا قلبي...
- لا عليك يا حبيبتي كنت سأتصل إنْ لم تفعلي؛ فالابتعاد سفر لعين، قلتُ أكذب بشأن الاتصال.
- لدي حزمة من الاشتياق أريد أن أنثرها على كتفك، تعال لأخبرك...
- وأنا لديّ اعتراف لكِ أنا قادم...

يوم الاعتراف العالمي...

يذهلني حجم الاحتفالات في كوكب الأرض، وأتساءل لِمَ لا يوجد يوم للاعترافات قد يصح أن نطلق عليه (يوم الاعتراف العالمي)، يوم يخرج به العالم لتصحيح ما خلّفته العلاقات والمشكلات، فإنْ كان اعترافاً جيداً أو سيئاً لكنَّه يصحح الكثير ويقتل الكثير من الفتن والأخبار المزيفة وربما يصنع الأفراح أيضاً؟!

كنت قد وجدت حيلة قد تنطلي عليها، وهي أنّي سوف أسافر إلى تركيا لألتقي بأبي وصديقي، وقد أعود إلى الوطن، كانت شارلوت خائفة من هذا التهديد وشرط إلغاء هذا السفر هو أنْ تخبرني ماذا تخفي عني! لماذا تخفين حبك المفضوح في عينيكِ، في عروقك البارزة لحظة أن تكذبي كأنّها تريد أن تنفجر، كأنّها تريد أن تقول أحبك.

حينها صدقت ما أقول، وكنت أكذب للمرة الأولى أو الثانية منذ عرفتها، استسلمت شارلوت وقالت: (توقف، سأموت من التفكير يا آدم إنْ رحلت ن دون أن تعرف هذا السر الذي سوف يضعك بين اختيارين أما الموت أو الموت وهذا ما أخشاه).

- تحدثي لن يحدث شيء.

أخبرتني حينها أنها هربت من بلدها حتى وجدت

قدمها في ألمانيا، وعندما أكملت جامعتها في ميونخ تخصص علم النفس وجدت نفسها محطّمة، وقد ساءت حالتها النفسية والجسدية، بدأت عليها أعراض مجهولة، ضعفتْ كثيراً حينها، كان ذلك في السنة الأخيرة. حينها قررت الذهاب لزيارة طبيب صديق للتبرع بالدم وإجراء بعض التحليلات، أخبرها أنها مصابة بمرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز).

ماذا يا شارلوت! كانت هنا صدمتي مفجعة التي أردتني باكياً لم تعرف عَيني سوى الدموع، كنتُ أتلعثم بإخراج الحروف، ما كان بوسعي غير أن أُطمئنها أنَّني معها والأمور ستكون بخير، استرسلت تكمل.

(أخفيت مرضي عن الكل، وقمت بأخذ عهد على نفسي أن لا أتزوج؛ لأنَّ الجهاز المناعي يضعف أثناء العلاقة الجنسية) أخبرتني أنها اتخذت هذا العهد الذي سوف يحرمها شعور الأمومة ولذة الإنجاب وفي يديها طفلها الأول، في هذه الفترة قامت بأخذ العلاج واستمرت عليه وتحسّنت حالتها، وعندها انتقلت إلى فرنسا لإكمال دراستها لأنّها كانت حلمها منذ الصغر، أردفت قائلة :

- شعور جميل أن تموت في مكان تُحبه عندما تكون تربة الوطن غير آمنة لقبر يحتويك فباريس مكان رائع للموت، منذ ذلك الحين وأنا لا أستطيع أنْ أحبَّ أو أتزوج أو أتقرب من شخص آخر، بكاء طويل دموعها

تشعرني بالاحتلال وكأني أفقد شيئان معاً؛ الوطن والحب...

- امسحي دموعكِ، أنا معك الآن.
- أشعر بالحب تجاهك منذ الوهلة الأولى، لكني مقيّدة...
- لو أخبرتني، لضحيّت بنفسي.
- كانت تضحيتي بالحب بدلاً عنك، جرّبت الابتعاد لكنّك كالحرية تطلقني بالأمان كل مرة.
- لنتزوج...
- أجابت إذا خدعني منطقي وقتها يمكنني أن أبادلك الحب العُذري.
- من أطلقتّني للحياة وانتشلتّني من ظلماتي تستحق أنْ تسلبها مني، لا قيمة لحياتي من دونك.
- لا يمكنني التضحية بك افهمني.
- اللعنة لما أرداكِ هكذا يا حبيبتي.
- زوجي وعائلتي، قتلوا الطهر في داخل روحي.
- سأعيد الطهر لروحك، سنتزوج وهذا قراري النهائي.
- سأقتلك مرتين إنْ وافقت.
- سيكون من الشرف الموت بواسطتك.
- عنود ومُضحٍّ، سيقتلني الجنس إنْ وافقت.
- لا يمكنني أن أتخيّل أنّكِ تداعبين نفسك بعضو بلاستيك؟؟

تحمرّ شارلوت من الخجل مندهشة!!

- من أخبرك هذا؟

- لقد رأيت هذا أثناء ما كنت بمنزلك.

بردة فعل حارة وهي تحرك يديها، توضح لي حجم العلاقات الجنسية والجسدية أثناء ما كانت في منزل ذلك اللعين جعلتها تتعطش للجنس، رغم أنَّها بحثتْ علمياً فيما إذا يوجد عملية إخلاء الشعور لفعلتها، لكن لكل شعور قيمة كبيرة، ولا قيمة للحب دون رجل حقيقي.

- أحبك رغم أنف المرض، قالت تمسك يدي.

- وأنا أحبك يا شارلوت ملايين المرات...

استمرت لقاءاتنا، وقبلت شارلوت أن نتزوج بشرط ألّا نترك أيَّ فرصة لإنجاب الأطفال إلا عند التخلّص من المرض. كان شرطاً يحمل الكثير من الأمان والمجازفة النفسية بحقّنا، ولكنه شعور عظيم أن تُحب رغم قسوة الظروف.

استمر الحب بيننا بشكل مقدّس، كانت علاقتنا جميلة جداً، أشعرت شارلوت بأنَّها أنثى رغم المرض الذي سلبها شعور أنْ تفكر الاف المرات بالارتباط برجل، وأن تجازف بحياة اثنين معاً لكنَّه أفضل من أن تعيش منفية دون شعور...

كانت أياماً جميلة شعرت شارلوت حينها بالارتياح والسعادة، الشعور بالاكتمال فنصفها الثاني قد التحم، صرنا قطعة واحدة، نشبه قطعتي مغناطيس عندما يحاول

أحد ما أن يجعلهما يتنافران، يقاومان ويحاول كل منهما التمسك بالآخر بقوة، فهذه الفرصة الذهبية لن تتكرر ولن تذهب أدراج الرياح بهذه السهولة، شعور شهي ولذيذ يحمل أيام جميلة مليئة بالفرح ونشوة الانتصار بالحب، كلانا يخبر الآخر أنّها أيّام كانت من المفترض أنْ تكون منذ قبل، وما هي إلا عرقلة السنين قد جعلتنا نتعثر، كلانا يعيش أحلى أيامه، نتسابق على مفاجأة مَن يجلب هدية غير متوقّعة قبل الآخر، عندما يتعلّق الأمر بالجنون هناك الصريخ والغناء بصوتٍ مرتفع والرقص في أنحاء البلدة، كمن يظن أن الحياة ستنتهي بعد ٢٤ ساعة، كما أنَّ العالم يحتوينا فقط، والشاهد حلقة زفاف لزوجين كل منهما يرى في شريكه الاختيار الأفضل؛ فشارلوت قد حصلت على رجل طيب يحترم عقلها ويمرض معها عندما تمرض، رجل قد يذهب متأخراً إلى العمل بسبب قُبلة صباحيّة طويلة جداً، رجل يحارب كوابيسها القبيحة ولا يخلف مواعيدها ولا ينسى عيد ميلادها، يحبّها كما يحب سماع الموسيقى التي تأخذه بعيداً، رجل يحتفظ بها كوردةٍ يسقيها دائماً.

في اليوم الآخر ذهبنا معاً لتغيير وترتيب أثاث وديكور المنزل الجديد، بالألوان التي تفضّلها هي، قُمنا بكل الأمور، آخر ما وضعناه سرير كبير لأوقاتنا الحميمية التي كانت تحلم بها مع رجل مختلف ويوم مختلف لموعد الزفاف، اكتمل الزواج هذا بحضور عدد قليل من أصدقاء

شـارلوت وهـم (الدكتـورة روز وزوجهـا المحقـق ديفيـد، أصدقـاء آدم فـي العمـل وبعـض الجيـران)، وعـمَّ الفـرح الـذي يتمنـاه كلانـا مـن رحـم المعانـاة، بعـد أيـام حملـت كوابيـس الشـياطين، والآن حلـمٌ واقعـي يجعلنـي أحملهـا وهـي ترتـدي فسـتان زفافهـا نحـو غرفتنـا.

فاصل زمني

كان المكانُ مظلماً، لا أرى شيئاً سوى بعض الأقدام تركلني، جُررتُ أرْضاً حتى شعرْت أنَّني تخلصتُ منهم حين أحسست أنَّهم يضعونني على كرسي يبدو خشبياً متآكلاً تخرج من سطحه أشواكٌ ربما نتيجةَ خدمته الطويلة، تجعلُ مَن يتكئُ على سطحها يتجردُ من شجاعتِه ويعترفُ بأشياء لم يفعلها يوماً دون الحاجة إلى الضربِ والعنفِ لإخراج ما بداخل هذهِ النفس، كنتُ أختنق؛ لأنَّ بعضَ اللاصقِ لم يكن وضعه في فمي فقط لإصماتي عن الصراخ، بل ربما لقتلي خلال تلكَ المسافة شعرتُ بألم شديد في ظهري وعنقي وفي قدمي اليسرى. قالَ صوتٌ عميقٌ لا أظنُ أنني سمعته من قبل: (أزيلوا العصابةَ من فوقِ عينيه واللاصقَ أيضاً) فأجاب أحدهم: (نعم سيدي)، كان الوهجُ القوي يضربُ وجهي ثم عينيَّ عندما رفعوا العصابةَ كمَن وضعوا مادةً نفطية في عينيهِ، كنتُ قد وجدت نفسي أجلسُ أمامَ طاولة متسخة تبدو مهملةً لمكانٍ منكوب، وأمامَ ناظري رجلٌ يجلسُ بثقةٍ كرجالِ التحقيقِ، لم أتبيّن معالمَ وجههِ بسبب الضوء القوي ما زالَ يخترقُ وجهي، سألني يتفحّصُ في الأوراقِ التي كانت أمامَهُ وقرأ: (اسمك آدم العيساوي؟) فأجبتُ: (نعم).

نظرَ إلى الأوراقِ ثانية وقال: (طالبٌ فاشلٌ، لم يُكمل الجامعةَ في كليةِ الآدابِ، حنطي البشرة، الطول ١٨٠سم، علماني؟)

أربكني السؤال، فسألته: يحق لي الإجابة صحيح؟

فصرخ في وجهي: قوّاد، لا يحق لكَ ذلكَ، المعلوماتُ التي معي مؤكدةٌ.

فهمستُ بخوف: خاطئة.

فصرخ بصوتٍ جهوريّ أسنانه تصطك حنقاً: مخنث ثُمَّ قال بسخريةٍ: ماذا إذاً، مؤمن؟

أجبت: نعم، مؤمن.

فأشار إلى مَن يقفون ورائي، فصفعني أحدُهم بقوةٍ على وجهي، شعرتُ بأن رأسي فقدَ شيئاً من أجزائه.

- أيها المرتدُ، أيّ مؤمنٍ يتقدمُ لخطبةِ فتاةٍ مسيحيةٍ؟! أيّ مؤمنٍ لم يصلِّ يومًا؟! أي مؤمنٍ يشربُ الخمرَ في باريس؟! سأقصُ مؤخرَتك..

كانَ من الصعب أن أفسّرَ ذلك فنفيت ما قاله: لم أتقدّم لخطبة سيدةٍ مسيحيةٍ ما.

صفعني الأخيرُ ثانية، فيما أشار إلى صديقهِ نحو البابِ، يبدو أنهم ينادون شخصاً من الخارج.

دخلت سيدةٌ ما، اقتربت في زاوية لا تحملُ ضوءاً كافياً، ثُمَّ أشارت نحوي بنظرةٍ اختلجَ منها قلبي، نظرتُ إلى فمها المنتفخ، تذكرتُ أن هذه التفاصيلَ ليست غريبةً، يا إلهي إنّها ماري!! صرخت بها: ماذا تفعلين هنا؟!

لـم تتقـدم خطـوةً أخـرى، سـمعتُ نشـيجَها وهـي تخـرجُ راكضـةً، يبـدو أنّهـا هنـا شـاهدةٌ علـى أكاذيبـي، أو قـد تكـون هـي رئيسـة هـذه العمليـة السـخيفة، شـعرتُ بخـواءٍ روحـي حينهـا، كنـتُ أرزحُ جـرّاء فظاعـة مـا يحـدث منطفئـاً وهزيـلاً، كانـت المـرةُ الأولـى التـي شـعرتُ بأننـي أكرهُهـا بصـدقٍ، كانـت النهايـةُ: إنّنـي لـن أتذكرَهـا بعـد الآن، ابتسـمت رغـم موقعـي الحالـي؛ لأنـي تخلصـتُ مـن دائـي وكـم يبـدو غريبـاً عندمـا تكتشـف أنَّ الـداء هـو الـدواء فـي آن واحـد.

قلـت فـي سـري: مـاري لـن تعـودَ كالسـابقِ، يبـدو أنهـا هربـت وقـررت موتـي.

صـرخ مسـؤولُ هـذه الطاولـة مجـدداً فـي وجهـي قائـلاً: أتصـور بـأن ليـس لديـكَ مـا تقـولُ بعـدَ الآن.

أيقنـتُ حينهـا بأنَّهم سـيتلذذونَ في تعذيبي، وسـيقطعونني إربـاً إرباً.

حينهـا قبـل أن يحـاول أحـدُ الموجوديـن رفعـي عـن الكرسـي، أشـارَ لـه المسـؤولُ عنـه بالتأنـي قليـلاً ليتسـنى لـه سـؤالي: متـى عـدتَ إلـى البصـرةَ؟

أجبت متجهماً: لم أزر العراقَ منذ سفري.

- هل أنتَ غبي أم ماذا؟ ومن الذي يتحدثُ أمامي الآن؟
- أربكنـي جوابُـه وجعلنـي أظـنُ بأنّنـي عـدتُ لحالتـي المضطربـةِ ويجـب أن أجـدَ دكتـورة شـارلوت مجـدداً لنجـدة هـذا المجنـون، أجبـتُ باقتضـابٍ مكـررٍ: مـا يحـدثُ

كذبةً، ما زلتُ في باريس.

أجاب حانقاً: اخرس، وضرب المصباحَ المُسلطَ على وجهي بالمسدس الذي يحملُهُ فانفجرت في وجهي مكوناته وحلَّ ظلامٌ حالكٌ، استيقظتُ مفزوعاً وكان مصباحُ غرفتي هو الذي انفجرَ، أما وجهي الذاوي بخير بفضل هذا الكابوس اللعين.

استيقظت دلال مفزوعة جراء صراخي «ابتعدوا عني»، قفزت إلى الأرض أقذف بيدي التي خمدت حين أخذتني في أحضانها وهي تقول:

- اهدأ يا حبيبي إنّه مجرد كابوس.

كانت حينها بلغت الساعة الثامنة صباحاً، ولم يرهبنا غير كابوس مكوّن من مجموعة أناس وشخصيات تداخلت ملامحهم وأصواتهم فيما بينها وشكّلت خطراً يتوجب الاستيقاظ وإلا قبض عليك ملك الموت وبعث روحك إلى الجحيم، هناك حيث هؤلاء الذين التقيتهم مصادفة ربما في ذاكرتك أو قبرك الذي سوف تلتحق إليه بعد موتك وينتظرك تسلسل سلّم الأموات الذين يقبعون فوقك وتحتك، يبدو أنّهم سوف يتقاسمون معك المكان، واحداً فوق الآخر، رأساً فوق الآخر وساقاً في بطن أحدهم، وربما ذراع ممدودة بين فخذي سيدة كانت في حياتها تحمل من العفّة ثقل شرف يزعجها الميت رقم عشرة الذي يقع قبره فوق جثتها القابعة في توابيت اللعنات، أخذت أشرح لها ما جاء في كابوسي قائلاً: لقد سمعت

تلك السيدة تطلب المساعدة وإلا سوف أحل محلَّ تلك الأذية إن لم ألقَ حلاً، وإنني بعد ذلك كُنت معتقَلاً في العراق في زنزانة رهيبة وجرى ما جرى.

أخذ منّي الفزع ما أخذ، حلَّ صمتٌ قصير، فركتُ عينيَّ جيداً، هدأ معدّل نبضات قلبي، استنشقتُ نفساً عميقاً بعد أن عرفت من خلال دلال بأنَّه مجرد كابوس لا أكثر، دلفت أحتمي بها وأحتضن يديها بحنيّة، جعلتها تفكّر كثيراً أنَّ هذا الرجل يحتاج إلى كتفٍ لا تُخلع عند هبوب عاصفةٍ ما، فليست هي وحدها مَن لا تريد إكمال بقية عمرها وحيدة، لكنّها حسابياً عملية صعبة نحتاج بها أن يسعفنا وقتٌ كافٍ للتركيز والاسترخاء جرّاء الحطام الذي خلّفته الأيام السابقة، فنحن نتذكر حتى جداولها من ساعة، يوم، أسبوع، شهر، خراب لا نحبّذه دائمياً.

الليلة السحريّة...

دخلت حافَة باب غرفتنا، كانت الأجواء رومانسيّةً تحتوي على أضواء خفيفة أشبه بالظلام، صرخ في وجهي عطرُها الباريسي وأنا أحملها.

عندما تكون هناك ليلة تحتوي على فستان قصيرٍ بلونٍ تُحبه لا داعي لإشارة المُناداة، سيكون من السخيفِ أنْ تجلس تنتظر ذلك؛ فليس على العاشقين حرج عندما تكون الفتاة التي تقربك في قمّة الرقّة والهشاشة، فهنا علينا الاستسلام معاً لاكتشاف معالم وتضاريسِ كلٍّ منّا، في هذه اللحظة حاولتْ شارلوت أنْ تُطفئَ الضوء، كانت نصيحتي أنَّ غياب حاسّة النظر يفقدني لذّة الخيال الجامح بثقل الشهوة، فلا خجلَ من تفاصيل جسدَينا، فلا داعي للظلام، أريد أنْ أرى تضاريسَك لحظة أوقاتنا الحميميّة كيف تبدو، وهنا الاحتضان سيّد الحل، تعالي، كانت ليلة خيالية من أجمل الليالي، ومن سيُصدّق أنّ من عفّنتْ رأسي بكوابيسها وهروبها الطويل كلّما حاولت اللحاق بملامحها، ها هي ترحّب لاستقبالي في غرفتها كزوجة، من سيصدّق أنّ حورية أو جنيةً ما تزوجت رجلاً ما لتقذفُه بعذريتها المفقودة، لتُجهض كلَّ ولاداتها التعيسة فوق خيباته، ولن يصبّرني شيء غير مزحتها المعتادة، لن ننجب أطفالاً من الجن فوق رؤوسنا ويربك هدوء باريس.

مرّت الأيام والشهور ومازال جمال شارلوت يترك أثراً، ينبتُ من ملامحها، من جسدها الناعم، من ضحكتها، من صوتها، من غضبها، يشعُّ ألقٌ داخل روحي، كانت تنتشلني من العبثية ورتابة دوام الأمس، اليأس، الحرمان، تحدث فروقات شاسعة في حياتي، ومازلت ألبث في حنانها الذي أنساني حضنَ والدتي، لكن هل سَيَدَعُنا القدر ننجو ونتجاوز جحيماً مرَّ مرور الكرام وقد يعود لرحمها الدافئ وجسدي الملعون، خطرت في بالي ألفُ فكرة لكنّي تركت الأمور على عواهنها ما دمت أعيش في عالمنا الخاص، عالم يتغذّى على بركات أفروديت..

شهور أخرى مرّت، شكراً لأفروديت، كنت عائداً إلى منزلي، أقبلت شارلوت متعبة من روتين العمل، أخبرتها أنَّني خسرت آخر مبلغ مالي لديَّ عندما وضعته مع شريك فرنسي كبير بالسن، قنعني بتشغيل أموالي واستردادها بفوائد في محلٍ لبيع الحلوى، لكن حدث ما حدث، التجارة ربحٌ وخسارة، تنازلتُ له بالخسارة ووعدني باسترجاع المال عندما يكون الحال ميسوراً، راحت شارلوت تضحك، لا تنزعج أرجوك، جرّب حظك في مشروع آخر، وهي تقبّلني، سمحت لي بالهدوء والاطمئنان.

عدنا مستلقيين على السرير، بدأ التعب يبدو واضحاً آخر فترة، وشيء من أعراض مرض ينهش بِنَا بصورة عدوانية، يبدو أنَّ هناك عدواً مخنّثاً لا يظهر ملموساً لمحاربته قد بدأ الحرب، يقتلنا من الداخل والخارج،

يجعل ابتسامة شارلوت لا تخرج بالصورة المعتادة ولا رجولتي كما هي مثلما تدَّعي حبيبتي!

يوم بعد الآخر، رغم أنّها فترة ذهبية جميلة، ازدادت أعراض المرض قامت بالاستحلال، صداعٌ قوي كما قالت حبيبتي، التهاب الحلق، قشعريرة البرد، التي كلّما شعرت بها شارلوت أقومُ باحتضانها، ماذا أيضاً؟ طفحٌ جلدي، بعض الآلام بالعضلات، تضخّم في الغدد اللمفاوية، أخيراً فقرُ الدم، هذا العدو يحارب بشراسة لكنّنا نقتله بالتفاؤل والأمنيات التي حملها تقرير الفحص الأخير الذي أجرته حبيبتي شارلوت، وراح يطمئنها طبيبها الخاص بأنّ الأمور تجري بخير نوعاً ما، ولكن علينا أن لا نجهد أنفسنا أكثر من اللازم، وهذه الجرعة من التفاؤل كانت هدنة شعارها السلام.

يوم الاثنين

انهيار! كالعادة تركتُ جميلة المواسم شارلوت، خرجتُ متأنقاً، انطلقت نحو شارع الشانزليزيه أعدلُ من قيافتي، وأحيل النظر بوجل حولي كأنَّني أتنبّأُ بمفاجأةٍ سيئة وانهيارٍ آخرَ بعد خسارتي في تجارتي الأخيرة وبيعِ محل الحلوى الذي قمنا بمشاركته أنا وذاك الرجل مؤخراً، كان يبدو حظّي نحساً بأن أصبح رجلاً عليه الاعتماد يشق طريقه بلقمةِ حلال تسدّ مصروفات المنزل ومساعدة شارلوت، كما فعل أبي معنا الذي لطالما كان يفكر في الأيام الخمسة الأخيرة نهاية كل شهر من أجل استلام راتب تقاعده بعد خدمته في سكك الحديد؛ كي لا يجعلنا نشعر بأيِّ تقصير، هذا النحس الذي معي يذكّرني كثيراً بقصّة مشابهة حدثت قبل ستةٍ وثلاثينَ عاماً تقريباً لحلوى الإيدز الشهيرة عام ١٩٤٦، حين حضّرَ كيميائيٌّ إنجليزيٌّ يُدعى سايمون كارل حلوىً عشبيةً تُدعى (إيديز) ادّعى أنَّها تؤدي إلى الرشاقة وكبح الشهية، وحققت الماركة نجاحاً كبيراً طوال ٤٥ عاماً، مما دعى شركة مارتن للأغذية لشراء حقوق تصنيعها عام ١٩٨١ بمليار دولار، كيف لا ونجاحها مضمون بسبب شهرتها؟

ولكن بعد شهرين فقط اكتشفت أول حالة لمرض خطر يُدعى (نقصُ المناعةِ المُكتسب)، أُطلق عليه

اختصاراً اسم (إيدز)..

وبسرعةٍ قصوى توقّفت مبيعات حلوى (إيديز)؛ لأنَّ الناس اعتقدوا أنَّ لها علاقة بمرض الإيدز، خصوصاً في الفترة التي حصل بها التخبّط حول سبب المرض الحقيقيّ.

تركت فكرة الانهيار التجاري خلف ظهري التي سببت دماراً لأغنى التجّار، فلست سوى شخصٍ لم يخسر إلا بعض مئات الدولارات التي يمكن تعويضها، شعرت بالوحدة واشتقت لحبيبتي، عدتُ إلى البيت.

مرت ثلاث سنوات، علاقة استثنائيّة، نهض وجعٌ غافٍ يمزّق الأحشاء والأعضاء، كنّا نعود من دار السينما بعد أن شاهدنا فيلماً نهايته لم تعجبنا جعلت من شارلوت تبكي رغم أنَّني أدّعي القوة لكي لا تتأثر، لا أريدها أن تضعف الآن، مدللتي ليست جاهزة للاستسلام. عدنا الى منزلنا وهي تتكئُ على كتفي حيث الأجواء باردة جداً تعطينا هدية الزكام، يجعلنا نلبث هاربين إلى سريرنا بوضع منهك جداً وبحالة مزرية وبوجوه شاحبة يكاد يفضحنا جفافها من المارة وبجسد منهك كأنّنا مخمورون من الإنهاك، فالمرض بان يمرر نهايته..

يحملنا سرير حزين ووسادة تحمل علامة سمايل ضاحك يخبرنا أنْ نشاركه لقطة أخيرة مبتسمين بها في كاميرا هاتفنا...

- سنموت غرباء أيضاً!

- أرجوك يا حبيبي لا تشعرني وكأنّنا نحتضر.
- أشعر أنّها ليلتنا الأخيرة حبيبتي.
- بودي أن أصفعك، لكن تبدو محقاً.
- أشعر بالأمان وأنتِ معي...
- لست وحيدة لأول مرة، أنت معي الآن.

البكاء بيننا كأنَّه مشهدٌ لآخر فيلم رومانسي حضرناه معاً، فيلم حزين كان به البطل يعاتب حبيبته، كان كل منّا يعيد المشهد نفسه من دون مخرج، وهنا على أكتاف الألم تستند حبيبتي، ويمر الوقت سريعاً ونشعر بالذبول..

- أتسمعيني؟
- نعم يا معشوقي.
- بداية زواجنا كان الأمر رائعاً كنت في قتالٍ شرسٍ مع المرض الذي حاول قتلك لكنَّه هزمني...
- إنَّه مغرم بي أيضاً واستحلّني، عندما خيّرني بينكما اخترتك أنت.
- هل كان بالإمكان أن يدعك تعيشين لو اخترته بدلًا مني؟
- ربما، لكنه لا يغار مثلك، أخبرته كم أنَّني أكرهه...
- إذا كانت هناك أمنية أخرى، سأتمنى أن أعيد تكرار تلك المعاناة التي خضناها معاً، قد أكون أول غبيٍّ يعشق تلك الفترة، كان لهذه المعاناة متعة فريدة.

- حقاً معك عرفت كيف يدخل الألم للجسد حينما يكون للألم جمال ومتعة.

من داخل الغرفة تظهر النجوم جميلة، والقمر مكتملاً، ولسوء الحظ لم تكتمل أمنية شارلوت برقصة أخيرة، كان المرض مثل كعب مُلتوٍ لا يهوى الإتلاف، لا يُسمع داخل المنزل شيءٌ آخر غير نحيبٍ طويل وجسدَين احتلَّ المرضُ أعضاءهم بمنظرٍ بشعٍ من أنفاس الموت...

- سامحني، أتوسّل إليك.
- أسامحكِ، قلت.

كانت تشد على يدي، تركّز محدّقة في وجهي الذاوي، نظراتٌ كلها شفقة تشعرني بالانطفاء!

- أريدك أن تعدني بشيءٍ قبل أنْ ننام يا حبيبي؟
- لكِ روحي، أكيد.
- قصتنا يجب أن يعرف بها العالم، أرسل كرّاس يومياتك غداً إلى صديقتي روز.
- أعدكِ إذا ما حييت يا عمري.
- سأحبك في جنّة النعيم أكثر يا حسرتي الوحيدة.

ضيق تنفّس، شهيق، إنَّها سكرات الموت، عربته في الانتظار، قد رنَّ جرس التنبيه طويلاً يحذّر لآخر مرة آدم وشارلوت، إنَّ الوقت قد فات على الاستيقاظ، يبدو أنّهم قرروا تقليدَ نومة أهل الكهف، يبدو أنَّ الدم لا يكاد يصل إلى الأصابع أو أطراف القدمين «حيث يصبح هذا الدم

ضرورياً في مكان آخر، أي في الرأس، في قلب جسمك، حيث تقع الرئة والقلب والكبد».

تبرد القدمان، ويصبح التنفّس ثقيلاً، وتتلاشى الحواس «أجسادهم تودع الحياة»، أسمعهم ينادون أنَّ الموت ليس جميلاً، إنّه أصعبُ ما يلاقيه الإنسان في حياته، قاسٍ ومؤلم، أمّا بالنسبة إلى الأقربين لا يحتاج الأمر طويلاً للنسيان، كلُّ ما عليهم التأكّد منه هو شهادة الوفاة، وهي أهم وثيقة في عالم الموتى، «أهم من بطاقة هوية الأحوال المدنية في حياة الأحياء»، أما العزاء فهو احتفالٌ قصير مؤثر جداً قد يقتصر على البكاء لبعض الوقت، ولن تتأخر ضحكاتهم الحقيقية القادمة أقل جداً مما أتوقع.

فتحت عيني، إنَّه الصباح، كنت لا أزال أتنفّس، ناديت شارلوت:

إنه الصباح حبيبتي! لا تُجيب، رفعت صوتي ظنّاً مني أنَّها تغطُّ في نوم عميق، شارلوت أنا جائع..

صرخت بها عالياً حبيبتي أتسمعيني؟ كانت المرة الأولى التي لا تجيبني بها حبيبتي!! ماتت شارلوت يا آدم وعدتَ وحيداً...

شارلوت أنا لا أمتهن مهنةَ التغسيل والتكفين استيقظي أرجوك، لا أحبُّ الجنازات التي تتأخر بالمغتسل، ها قد بدأ نهر عيني يهطل حاراً وشديداً وبدأ الخنين الذي لا تحبذيه يخرج مع النشيج.

أصرخُ بها شارلوت، وأحتضنها بشدة دون أنْ تجيب، رفعتُ يديها على كتفي وشددت بها بقوة، بعد أن مسحت

عينيها بيدي، بدأت أحتضر ونسبةُ الأوكسجين تقل في جسمي، يبدو أنَّني أتنفس أنفاسي الأخيرة، رفعت نفسي بشق الأنفس، بدأ عقلي يتخثّر كأن دماغي بدأ يتلف، خرجت أزحف خارجاً بعد أن وعدت شارلوت بأنني سأقوم بإرسال كراسة يومياتي إلى روز، كنت أقوم وأسقط، أخذت سيارة أجرة إلى شركة التوصيل وأعطيتهم الكراس ليومياتي، أخبرتهم بأن عليهم أن يوصلوا الطردَ البريدي إلى عنوان الطبيبة روز، عدت مع سائق سيارة الأجرة نفسه إلى منزلي حيث شارلوت ربما تكون بانتظاري، أنا قادم يا حبيبتي...

انتهت الكراسة المأساويّة، طويت غلافها وضممتُه على صدري، بعد أن انهالت حبيبتي روز بالبكاء، تركت دموعي التي هطلت ورحت أمسح عيونها، كنّا قد علمنا الآن سبب اختفاء آدم وشارلوت، رنَّ هاتفي يربك حالتي راح يتصل بي المحقق (بول).

- ديفيد، إنَّ المدعو آدم وزوجته شارلوت من أصدقائك ...ونحن في انتظارك للتحقيق، قاطعته بأنِّي أعرف كلَّ ما جرى معهما وأنَّي سوف ألحق به قريباً، خرجنا مسرعين أنا وروز نحو منزل الأَخيرين.

أربعة أيام مرّت قد كان الكل متفاجئاً باختفاء آدم وشارلوت، كان مسبقاً قد بدأت تظهر رائحة كريهة من أجسادهم جعلت الجيران يبلّغون السلطات، بالوقت الذي كان العديد يفتقد غيابهم، يبحث ويسأل عنهم، دخل

المحقق ديفيد والسلطات ليجدوا جثتي آدم وزوجته بصورةٍ مأساوية، كل منهما يحتضن الآخر بأجساد مائلة للاخضرار متآكلة من الجفاف، انتهى التحقيق بالقضية بعد أن تأكّدت السلطات بأنّهما مصابين بمرض المناعة المكتسب، وهذا ما أوضحته التحاليل والفحوصات في المستشفى، بعد ساعات قليلة كانت أمور الدفن تبدو بسيطة وهادئة، هنا في باريس يوم مشمس، كان الفضول يرسم حزناً على الجموع في لباسهم الأسود الذي ارتداه الكل ربما احتراماً لذوق العرب في لون الملبس عند العزاء، أو تحديداً للعراقيين الذين يحبذون السواد عند موت أحدٍ ما، كانت أعداد المعزّين قليلة جداً، بعيداً عن الأحبة، الحضور على عدد أصابع اليد (أنا ديفيد وزوجتي روز، مايكل صاحب المطعم، نادلان عَمِل معهم آدم، جاري شارلوت). ينظرون لي ولزوجتي روز بشفقة عندما عمَّمت الخبر على المقرّبين وهم يرمون الشكوك حول الحادث، لم نخبرهم بسبب الوفاة وهم يتكلّمون بعنفوان؛ لأن الأجساد كانت تبدو كأنَّها جريمة قتل تحت التعذيب، تركنا الأمور على عواهنها بشكلٍ طبيعي احتراماً للفقيدَين وتلافياً لإطلاق الشبهات حولَ هذا المرض الذي يدخل في زور إطلاق شبهات الأعمال الإباحيّة، كنّا نتحدّث عن عزيزَين كانا سعيدَين، ولكنَّ الله اختارهم ليكونوا قُربه، وهذا الخبر وصل بعد فوات الأوان إلى عائلتَي الأخيرين، وجعل الأحزانَ مكثّفةً هناك، فانهارَ الجميع كما انهيار حلوى الإيدز...

الخاتمة..

الحـبُّ يـؤدِّي إلـى الجنـسِ لكـنَّ الجنـسَ قـدْ لا يـؤدِّي إلـى الحُـب...